البـاب الآخـر

(قصص قصيرة)

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب

خالد بوعلي

البـاب الآخـر

قصص قصيرة

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2008.
10، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-752-4
الإيداع القانوني : 2008-3693

السقطة

خزانة من الطراز القديم ماتزال محتفظة بصرامتها ومفاتيحها الثقيلة، وهي ملتصقة بالحائط الأيمن للباب، وتعتليها حقيبة رمادية «أبدية» بين حارستين أمينتين : زجاجتي عطر من النوع العادي، لم تفتحا بعد ولن يقع ذلك مادامت العجوز زرفة على قيد الحياة !

مقابل الخزانة يقع السرير الذي هجرته غنوجة «المجنونة» زوجة إبنها. إنها تلقبها كذلك لأن فعلتها تلك كسرت شوكته بين زملائه، بل وفي القرية بأكملها. و هي تضع ذلك على عاتق الجنون وكاهله لتبرئ ولدها من المسؤولية تماما.

سرير بدائي، لا أكثر ولا أقل. حديد من أوله لآخره، ومثبتة قوائمه في بلاط الغرفة الأمامية للمنزل... سرير الأب وسرير الجد قبل ذلك، وربما يكون أقدم. لكنه مازال راسخا لا يتزعزع.

إنه السرير الذي يستلقي عليه عبود الآن، والعرق يتفصد من جبينه، وأهدابه ترتعش... وهو يتقلب في فراشه كمن يهم بنزول منحدر رهيب... غير أن الضباب كان يحجب الرؤية، وشجر الأرز عائق جهنمي في وجهه. عليه أن يتجنب الاصطدام بالصخور الناتئة أيضا، وإلا تهشم رأسه. لكن النافذة مفتوحة وهي قريبة منه. هو حتما سيميل نحوها. عليه أن يمسك بمزلاج النافذة وإلا ضاع تماما وكانت نهايته... مالهذه الأغصان المتشابكة تمنعه عن مواصلة جهوده لإيصال ذراعه ناحية المزلاج ؟... آه، ماهذا ؟ ما الذي سيحدث ؟ لا شك أن المنزل سينهار !...

– من الأحسن أن لا أواصل السقوط ! ولكن حذاري من أغصان الأرز... آه لهذا الضباب اللعين...

اللحاف يسقط ببطء على أرضية الغرفة، وتخرج رجل عبود من السرير. لقد تحول لحن شخيره وصار أكثر رتابة. بينما خرجت يده مشيرة للباب، وعادت رجله من جديد للسرير.

لا ! المنزل لم يسقط.

لا ! لن ينهار.

يجب أن أمسك على الأقل بفتحة الباب، أو بالباب ذاته... أين الباب ؟ أين الباب ؟...

الباب مقابل للنافذة، حيث يقبع المكتب، مكتب عبود، حديد خالص. بضعة أوراق متناثرة هنا وهناك حول آلة راقنة، عريقة

القدم والأصل، مفخرة العجوز زرفة. لأن ابنها كاتب عمومي. كان أكثر أهل القرية يقصدونه ليكتب لهم الرسائل أو حتى ليقرأها لهم. وكانت تلك وسيلته الوحيدة للعيش.

ماذا دهاها ؟ بالله ماذا دهاها ؟ تردد العجوز في كل مرة، وما من مجيب. لا الآلة ولا غنوجة تجيبان، ولا حتى عبود. إن العرق يغرق جسمه في دوامة لزجة من الأهوال... كل الأشياء تترقبه، حتى الجامدة منها، كالحجارة والأغصان. خطوة رديئة واحدة وينتهي. كل شيء يترقبه... وها هي ذي العقبان تحوم هناك، على قمة الجبل، حيث لا يستطيع أن يرى جيدا.

ثم إن هذه الجذور التي يمسك بها، قد لا تكون صلبة للحد اللازم. سيتابع السقوط بين لحظة وأخرى... عليه أن يغير مركزه... «آه لو أستطيع أن أقفز إلى ذلك الغصن ! سيقيني شر السقوط على تلك الصخور المسننة الحادة... لو أستطيع ! إن يدي تكاد أن تلامسه إذا مددتها، لكنني أخاف أن تزل رجلي، فأجدني هناك... ويا للهول ! لا، سأصعد قليلا. لا بد أن أصعد قليلا !

حذار أن يصطدم رأسي بتلك الصخرة... لا... هي ليست بصخرة... إنه سقف الغرفة الأمامية... »

– "لا شك أن المنزل قد انهار !"

سقف الغرفة الأمامية ! غرفة العروس. كانت العجوز لا تفتأ تحث عبود على القيام بترميمه بسبب القطرة. أما غنوجة فكانت

ترى في ذلك جريمة شنعاء، يرتكبها عبود في حقها كزوجة محترمة ومن عائلة محترمة. وكثيرا ما كان يقع بينها وبين زوجها جدال حاد من أجل ذلك، خلال فصل الشتاء الماطر.

أما العجوز زرفة فكانت تكتفي حينذاك بالتعقيب على «المجنونة»، من داخل المطبخ وبصوت لا تسمعه إلا هي، كما اعتادت على ذلك، مخافة أن تقع كلماتها في آذان عبود فيفرغ عليها جام غضبه. إنه شديد النرفزة في مثل هذه الأحوال، ولكونه لا يستطع مواجهة غنوجة طويلا، فإنه يتحول إلى أمه، كونها المنفذ الوحيد. ثم يخر بعد ذلك على الفراش، أين يتصبب الآن عرقا.

ضباب شديد وبرد شديد !

كم من الثواني ستعطل تلك الصخرة سقطته الحتمية الرهيبة ؟ لن يثبت عليها طويلا. إن جسمه ينزل بهدوء رغم انحدار الهوة... وها هو يبتعد عن الهدف المنشود... لا، لن تقع يده على هذه الجذور... هي مسافة نصف متر فقط، ولكنه لن ينالها. لقد تقطعت سترته بكاملها وتمزق السروال، وسيأتي دور القميص. «ولكن ها هي ذي المدفأة... فلأتحمل الألم... يتحتم أن أرتطم بها إذا أردت النجاة... يتحتم ذلك. آه ! لم يحدث لي شيء... من أين جاءت هذه الحلقة الحديدية ؟ إنني لم أرها من قبل. أو لعلني لم ألحظ ذلك... أهملته مجرد إهمال... ولكن أين المطبخ ؟ أين المطبخ ؟... »

المطبخ ؟ ميدان العجوز الخاص. إنها لا تقبل مساعدة غنوجة ولا تسمح بدخولها إليه. هي تتهمها بأشياء كثيرة، ولكنها لن تحدث عبود في الأمر، خشية أن يغضب عليها.

أشياء وغير الأشياء، كتلك العجوز الشمطاء التي تزعم غنوجة أنها خالة أبيها، والتي كانت تزورها في نهاية كل شهر تقريبا. وبعد ذلك بأربعة أو خمسة أيام، تبدأ الضجة، والجدال الصاخب لمدة ساعات، ثم يخرج عبود من الغرفة ليفترش القداسة ويطأها بشدة، مترقبا فرص الهجوم على المطبخ، حيث يشيب الصمت على وجه أمه المرتعدة.

أما غنوجة فتصفق الباب خلفه حتى يرتج المنزل بكامله، وتفعل فيه المفتاح، ثم تأخذ في العويل بصوت يقلق الجيران ويفتح آذانهم لاستقاء معلومات إضافية، شبه ضرورية لحياة الجماعة المتحضرة. بينما تتواصل تعقيبات العجوز وملاحظاتها داخل جمجمتها المستطيلة فحسب، وهي تجلس أمام الموقد جلسة أهل الـ «يوغا» وتضع ذقنها على ركبتيها، وتطرق برأسها كما كان يطرق هو بالأمس إثر الغضب الشديد الذي انتابه، الشيء الذي جعله يحطم أربعة أطباق من الفخار وكأسا زجاجيا، لمجرد أن تكلمت معه أمه قائلة : «خفف عليك يا بني، وتعال لتناول الغداء». والواقع أنه كاد أن يفتك بالعجوز ذاتها، لولا أنه تماسك نفسه وسيطر على غليان الدم في عروقه. مثل هذه النوبات كانت تسيء إليه بشدة، وكان يحس بعدها بوخز الضمير، ويتساءل كثيرا... دون

أن يتجاوز ذلك إلى الإجابة... لقد انقطع نهائيا عن التفكير في إيجاد الحلول منذ سنين، لأن المشاكل التي اعترضت حياته، كانت تتراكم إما تلقائيا أو لأسباب متعددة ومتشابكة، حتى صار تحليلها ضربا من المستحيل، فأنّى له بالحلول الناجعة. فقط استطاع التوصل إلى شبه حل وحيد، إذا اعتبرناه كذلك، وهو النوم... النوم باستمرار، كلما سنحت الفرصة. و النتيجة الوحيدة التي استخلصها من تلك التجربة هي أن الكابوس أفضل من الواقع الذي نعيشه.

ولقد دأب على النوم حتى أنه كان يسأل نفسه أحيانا : «لماذا أستيقظ ؟» ويجيب دون أن يفكر «لكي أنام مباشرة بعد ذلك». ينزلق إثرها داخل الفراش ويخفي رأسه تحت الغطاء.

وتتحسر أمه قرب الموقد : «عبود المسكين... (يا حسراه) !»

لكن عبود كان يترنح تحت وطأة القلق الجنوني. هجرته غنوجة إلى حيث لا يعلم أحد، اللهم إلا تلك العجوز الشمطاء التي لم تظهر بعد ذلك أبدا. «آه لو يستطيع القبض عليها ! ولكن لماذا ؟ ما الفائدة من وراء ذلك الآن ؟ إن رأسي تكاد تنفجر، فلأذهب للنوم...» الهروب الوحيد.

أما السرير فعريض وواسع، ولكنه فارغ ومائل أيضا... "لعله علق بجذع هذه الأرزة ؟ كيف ؟... لا، لا... أنا أحلم ! هو ليس بجذع أرزة... يا للهول ! سيسقط السرير حتما إلى قاع الهوة.

يجب أن أتركه في الحال... ولكن إلى أين ؟ إلى أين ؟... هيهات أن أدرك تلك الأغصان فتكون النجاة مضمونة... النجاة... ليس هناك حل ! طبعا ليس هناك أي شيء يمكنني أن أفعله للخروج من هذه الورطة. فلأستسلم إذن للجاذبية... أستسلم ؟ لن أستسلم بمثل هذه السهولة... لن أقبل بذلك أبدا ؟ ستتفتت ضلوعي ويتهشم رأسي على تلك الأسنان الحادة، هناك، في القاع السحيق، وستتفجر أمعائي تحت الضربات المتتالية لمناقير هذه الطيور اللعينة، التي ما فتئت تتبعني منذ أن تعثرت رجلي على زر المعطف الشتوي، التي كانت غنوجة تبدو داخله وكأنها سفرجلة ناضجة".

أذكر أنها بحثت عنه طويلا، قلّبت الدار رأسا على عقب للعثور عليه، بدون جدوى. أخذت تتجسس على أمي وأنا أقرأ في عينيها تفاصيل مخاوفها الخرافية. تلميحاتها إلى كل عجائز النحس اللواتي تعج بهن القرية أيقظت داخلي عناصر التقزز. كنت أكرهها إلى حد الموت في مثل هذه اللحظات، لا أحس نحوها بأدنى شفقة.

ولكنها سرعان ما تتحول إلى حديث آخر وموضوع ثان، تتحدث عن المستقبل وعن تخوفاتها وعن الطفل المحتمل الذي سيكون جميلا، كأمه. ذلك الطفل الذي لم يقدر له أن يكون !...

الطفل. كانت العجوز زرفة تعتبره مجرد ثمرة من ثمرات خيال غنوجة الجنوني، طفل وهمي لا محل له من الوجود، حيوان يقطن

رأس غنوجة ولا صلة له ببطنها البتة، لأن امرأة كهذه لا يمكن أن تنجب أطفالا ! كانت العجوز تقر بذلك إقرارا ولا تحتمل مجرد الشك فيه.

لكن عبود مقتنع بوجوده، بل وهو ينتظره كمن ينتظر نبيا جديدا. لقد أمطرت الهدايا على الدار، وعلى زوجته الجميلة خاصة.

– هذا المعطف من إيطاليا، وهذا المنديل من اليابان !... كم كان فخورا ! أما الديون فكانت تتكاثر وكان فخره ذاك لا يجد بدا من الزوال.

كانت طرق القرية تضيق عليه الخناق، ومقاهيها تنفره، وكان عليه أن يجتنب السوق أيضا.

– "إلى أين أذهب ؟ إلى أين أذهب ؟... لا ! لأدع السرير نهائيا. لا يمكنني أن أتشبث به أكثر مما فعلت ! حذاري من السقوط بدون هوادة ! حذاري... لا يجب أن أستسلم... لا يجب... ها هو ذا الضباب يعود... اللعنة !... إن هذا الجذع الناتئ سيمزقني إن لم أسرع بالإبتعاد من طريقه... علي أن أحرك ذارعي قليلا نحو اليسار ! ولكن... ما بالها هكذا ؟ لماذا لا تتحرك ؟ ما هذا الثقل المفاجئ ؟... هل فقدت الإحساس بها ؟ لا ! إن ذلك غير ممكن !... آه، ها هي ذي تعود فجأة للحياة. إنها تمسك بخرقة ما... لا... إنه الستار... والنافذة ؟... أين النافذة ؟"

النافذة ! أو النافذة الكبيرة، هكذا تنعتها العجوز زرفة رغم ضيقها الواضح، ومهما بلغت سعتها بالمقارنة مع نوافذ المنزل الأخرى. والواقع أنها تظهر كذلك، لكون الغرفة الأمامية أضيق مما قد يتخيله القارئ بكثير، رغم كونها أوسع غرف الدار، غرفة العروس غنوجة !

ولعل العجوز تصبغ على النافذة طابع الكبر والسعة، لا لمجرد المقارنة مع النوافذ الأخرى، بل لكونها كانت دائمة الانفتاح والانفراج. ابتسامة عريضة في وجه المارة، آفلهم وسافلهم، مقبلهم ومدبرهم. بل وهي تذهب أبعد من ذلك، وتعتبر النافذة كباب غنوجة الخاص... باب الحانة أو باب الجحيم، كما يحلو لها الوصف بين ملاحظة وأخرى، عند غياب عبود أو «عبد غنوجة» على حد قولها أيضا، عندما يركبها شيطان الغضب بدورها، وذلك في حالات خاصة ونادرة. إذ أنها في الواقع تحب عبود وتشفق عليه، إنما تعتبره مغلوبا على أمره، كمعظم الرجال !

أما غنوجة فكانت تربطها بالنافذة صداقة حميمة، كتلك التي تربطها بالمرآة أو ربما أكثر. لقد صدقت العجوز حين قالت : «النافذة غنوجة، وغنوجة النافذة». إنها تمضي معظم أوقاتها في الوقوف إزاء النافذة الكبيرة أو المرآة، أو بينهما. وهي لا تحيد عن هذه أو تلك إلا لتجلس إلى المائدة في أوقات الطعام، أو لتركب السرير بعد العشاء مباشرة، وتفتعل المرض والحمى أو الغضب أو أية وسيلة أخرى للهروب من قبضة عبود، مجنونها الوديع.

عبود المسكين (يا حسراه) ! كما تقول العجوز زرفة. إنه يخضع لقوانين السرير المفروضة عليه فرضا. إذ يجب أن يدع نعليه في الدهليز، ويغسل يديه ورجليه بالصابون، ثم يفرك أسنانه بالمعجون الخاص، الذي أرسلته إليها أختها خيرة من فرنسا، ليتمكن بعد ذلك من دخوله. ثم يتحتم عليه الخضوع لقانون المتحف والسينما وحقوق التمثيل، وتقدير ظروف الفن و الفنانين والنظر إلى آلامهم الجسيمة، وهلم جرا. وليبق عليه بعد ذلك أن يستجدي مشيئة السلطانة.

– غنوجة ! لماذا كل هذا الغضب يا غنوجة ؟

– أنت تسألني ؟ اسأل نفسك.

– ولماذا ؟ ما الذي يحدث يا غنوجة ؟

– الربيع يا عبود... ألا ترى أنه الربيع !

– الربيع ؟!

– أصمت... ذلك أفضل.

– ولماذا أصمت ؟

وتصرخ غنوجة بأعلى صوتها :

– قلت لك اصمت !

– حسنا سأصمت.

ولكن عبود يتابع التفكير ويتواصل الحوار في أعماقه. «ولماذا أصمت ؟ لماذا ؟ هل سينهار العالم ؟ ثم إننا لسنا في فصل الربيع... ماذا تقصد ؟»

– نحن في فصل الشتاء يا غنوجة.

– وما يهمك في الأمر ما دام غربال العجوز خير من هذا السقف اللعين ! ويصمت عبود لتوه، لا يجرؤ على مناقشة الحقيقة، ويغرق شيئا فشيئا في دوامة الضباب.

ضباب كثيف... وهو لا يكاد يرى شيئا، عدا ذلك البريق الذي يتراءى له من حين لآخر، هناك، على بعد بضعة أمتار إلى أسفل. لا شك أنها مرآة الخزانة... نعم ! ... مرآة العروس. "آه ! كيف لم أتفطن لذلك من قبل ؟ لا شك أنها هناك... لقد اختبأت داخل المرآة... يا لها من ماكرة !... طبعا بإمكاننا أن ننفذ إلى داخل المرآة! وسأفعل ذلك... سأفعله من أجل غنوجة... من أجلك يا غنوجة ... يجب أن ألحق بها في أسرع وقت !"

– لأواصل السقوط إذن... يتحتم أن أواصل السقوط !

ولكن... ماذا أرى ؟ لا أصدق... إنها أمي... أمي ! وهي تحمل في يديها زجاجتي عطر من النوع العادي وتقف في وجهي بكل هدوء و صرامة، والذهول في عينيها وهي تردد :

– "عبود المسكين (يا حسراه) !"

الطلاق

طلق امرأته الأولى وطلق الثانية وهو بصدد التفكير في طلاق ثالث. زوجته لاتفهم حرفا واحدا في أمور السياسة ولا حتى في الاقتصاد، ثم إنها تجهل التاريخ إلى حد جعلها تتفوه ذات يوم بهذه الجملة التاريخية :

- نصف التاريخ كذب !

انطلق إثرها حمّو في ضحكة متقطعة طويلة، تتخللها نظرات دهشة. ولكنه كان لا يسمح لها بمثل ذلك الكلام وكثيرا ما كان يرغمها على الصمت، رغم ميلها الواضح للثرثرة وإسرافها في الحديث كلما وجدت آذانا صاغية.

أما هو فكان يحلم بأشياء كثيرة، كلها ذات أهمية بالغة وذات خطورة بالغة. أشياء لم يحدث أن حصل عليها أو توصل إليها، رغم تجاوزه الأربعين ورغم تجاربه المتعددة في كثير من المجالات والميادين.

والواقع أنه كان ينسج هذه الأحلام، الواحد تلو الآخر، ويتفنن في التفصيل والألوان، لمجرد النسيج فقط، لا يروم من وراء ذلك إلا التلذذ بمذاقها الخيالي – لقد يئس منذ زمن طويل في تحويلها إلى حقيقة– لذلك كان يكره الضجيج و ينزح إلى السكون. كما كان يفضل هدوء المتحف البلدي، مكان عمله، حيث لا يأتي إلا نفر قليل من الزوار الذين لا يطيلون المكوث. وهناك، كان يمكن لأحلامه الفسيفسائية أن تترعرع باطمئنان.

أما بالمنزل، فيوجد أبوه وعبوسه الدائم ونرفزته الحادة، مرة أو مرتين كل أسبوع. وهناك أمه، وحركتها الدائبة بين المطبخ والبهو والحمام، كلما تغلبت على عفريت المرض. بيد أنه كان يعيد الكرة كرتين، ويطرحها على السرير لمدة أسبوع أو أكثر، تبدو خلالها على شفا هوة الموت الرهيب. ولكنها سرعان ما تستعيد نشاطها وحيويتها، تخلع المرض تماما كمن يخلع قميصا وسخا للغسل، ثم تتنقل بين المطبخ و الفناء وعبر الدهليز، بكل خفة، وتصبغ على المنزل كله طابع الحركة والحياة.

ثم إن هنالك أصدقاءه وهم كثيرون، ويقطنون كل ضواحي المدينة، شرقا وغربا وجنوبا. أمّا الشمال فهو للأعداء، لا يفصلهم عنهم إلا البحر، حيث تضيع أحلامه الزرقاء بين صخب الأمواج وتلاطم المياه.

كان أهل الشمال، أعداؤهم منذ الأزل، يرفعون السلالم عاليا وينطلقون في الفضاء، ينظرون إليهم من أعلى إلى أسفل. ومن

حين لحين، يبثون في أوساطهم عدوى الأمراض الجهنمية، التي يختبرونها مسبقا ويحددون مفعولها ونتائجها، بحكم التجربة الطويلة والمتكررة عليهم، هم أهل الجنوب خاصة.

وفجأة - وبدون سابق إنذار - يحدث الزلزال في المدينة، ويهجر الأصدقاء الأصدقاء : «لكل ذي هم همه !» وينظر حمو إلى الشرق، ضباب دائم وصراخات لا تنضب وعباءات مضرجة بالدماء، ونساء يولولن بين فرقعات البارود ودق الطبول. وينظر إلى الغرب، ثورات أبدية واغتيالات دنيئة وكفاح مستمر... وقليل من «الطورطيا» لسد ثغرات الرصاص، وصد ألم البطن والنار، واستعادة الأمل.

كان يحدق حواليه في كامل أنحاء الجنوب، ولكنه كان لا يكاد يبصر شيئا. لا لأن الظلام المفروض وصل إلى الحد الذي تنعدم فيه الرؤية تماما، أو لأن الجهل الضارب في البلاد كالطاعون أعمى بصيرته، أو لأن الجوع - وهو أبشع في الجنوب من أي مكان آخر في المدينة - زعزع أركان التوازن في مخه وأحدث به الدوار والاضطراب. ولكن بصفة خاصة لأن الأشياء ذاتها تبعثرت إلى درجة لم يعد فيها ممكنا تحديد مفاهيمها أو ضبط مقاييسها، واستحال إعادتها إلى أمكنتها الصحيحة أو الطبيعية. الناس أنفسهم تغيروا في الجنوب، منبع الحضارات الإنسانية كلها ومسقط رأس أول بشر ظهر إلى الوجود.

الناس هنا، تغيروا كثيرا. إحساساتهم تشابكت، صارت مبهمة. لم يعد أحدهم يدرك من هو من، ولا من منهم ومن ليس منهم، ولا أي شيء آخر.

إن حمو لا يفهم جيدا، وسط دوامة الغموض والفلسفة الضبابية، كل ما يحيط به ويمت بصلة إلى وجوده وصيرورته. هو يطمح للوضوح ويحلم بالنور والشمس.

لقد فكر ذات مرة بأنه لو استطاع السيطرة على كوكب اللهب ذاك – أبو الحياة و ملقح الأرض – سيطرة فعلية كاملة، بحيث يمكنه التصرف بطاقاته كما يشاء، لكان قد أرغم أهل الشمال على الرضوخ لمبادئ الإنسانية العليا، على عدم استغلال ضعف الآخرين، على الهدوء والسلام والصفاء، على الإقرار بأن السعادة واجب مقدس وحق مقدس للبشرية جمعاء، وليس لأفراد خواص «فضلتهم» الطبيعة على غيرهم من بني البشر، وخصتهم بثرواتها واحتكار أسرارها بدون مزاحم. إلا أن أفكاره تلك، كانت كلها تتحطم على جدران الواقع الأليم، وتذوي تحت لفيح الهجير وضربات الحقيقة المرة.

وها هي ذي زخروفة تملأ المنزل بضجيجها، تزخرف الصمت والسكون، وتنقش عليهما كلماتها الرنانة بكل إصرار. إنها دوما بالمرصاد لزوجها، تذكره بالصغيرة والكبيرة، بفاتورة الغاز والكهرباء والماء، بأجرة الكراء وبما يحتاج إليه المنزل من لوازم ضرورية للمعيشة الزوجية، وتنبهه لأشياء عدة. إذ لا يلزم أن

يضيع نصف رصيده المالي – وهو ضئيل بالمقارنة مع ما يكتسبه بعض الناس يوميا من رزق – في أشياء تافهة تماما.

وها هو أبوه قاسا ذو الوجه المجهم والقامة الفارعة الطول، يذرع المنزل جيئة وذهابا، خاصة بعد إحالته على التقاعد. إنه يعد مربعات البلاط ويقيس سمك الجدران وعلو السقف وانحدار الزمن. هو رجل شديد الواقعية وشديد الحيطة. علّمه سوط الحياة كيف يجب أن يحني ظهره لضربات القدر المتتالية لكي لا يتكسر، وكيف يحترس من كل شيء ؛ وعلّمه أيضا كيف يحوّل الدنانير القليلة إلى منزل واسع، لبنة بعد الأخرى، ويوما بعد يوم. لكنه كان يجهل ما يخبئه له المستقبل من مفاجآت : لقد مات ابنه البكر وهو يواجه أهل الشمال برصاصة طائشة ؛ أما ولده الثاني والأخير فهو غامض اللب، غريب الأطوار، شاذ السلوك.

إنه يتنقل من عمل لآخر دون مبرر واضح، ومن زوجة لأخرى كل خمس سنوات تقريبا. ومن حين لحين، تقرع مسامع أسرته قهقهاته الهيستيرية المفزعة، فيقف لها شعر أبيه، ويتوقف نشاط أمه وتتشنج عضلاتها ؛ أما زخروفة فتغرق في البكاء.

والعجيب أن حمو لا يخرج إلا نادرا من غرفته، خلال العطل وأيام الراحة، يكرس كل أوقاته للأحلام، ثم يدونها ليلا في سجل كبير، يحفظه في درج مكتبه البالي. إنه لم يترك لأحد فرصة تصفحه، لا ليلى زوجته الأولى، ولا لضياء زوجته الثانية، ولا لزخروفة شريكة حياته الآن. لم يحدث مرة أن نسي غلق الدرج

غلقا محكما، عند خروجه من الدار. كان يتأكد من ذلك بحركة يدوية خفيفة، يضع بعدها المفتاح في جيب سترته، ثم ينطلق بخطوات سريعة وصامتة خارج المنزل.

«هذه المرأة تسمم فكري، وتقطع نسق وجودي بلسانها الذي لا يعرف إلا الضروريات واللوازم والتوفير والاحتياط... إنها لا تبصر النور ولا تفهم كنه الحضارات الشمسية ولا حتى القمرية. لا، لن أقبل بها !... يجب أن أتخلص منها مهما كلف الأمر !»

كان فقط ينتظر فرصة سانحة لذلك، ويحرص على عدم الإتيان بأطفال، ويتهرب من مسؤولية تربيتهم، على أساس أن أهل الجنوب غير قادرين على ذلك، مادام هنالك اضطراب في المعيشة ونقص في الغذاء وعجز في وسائل التكوين والتربية، لأجل العجز الثقافي والعجز في الرؤية الحضارية وفي وحدة الهدف... إلخ.

سألته زخروفة ذات مرة : «بماذا تحلم ؟» لما رأته ملقى على السرير، شارد النظرة ويده على خده. فأجابها «أحلم بالحب». وعقبت عليه مباشرة : «بالحب ؟ حقا ! هل عدلت عن التفكير بالطلاق ؟" تدفقت إثرها ضحكة حمو الهيستيرية ولكن زخروفة ألحت عليه بالسؤال وطلبت منه أن يشرح لها تناقضاته، واتهمته بالأنانية والإفراط في حب الذات، وانعدام روح المسؤولية لديه، لكن إجابته الوحيدة كانت تتمثل في ضحكته المتواصلة، والتي كانت تزداد انفجارا وتستمر لمدة طويلة بعد خروج زخروفة من الغرفة وهي تردد :

– «أنت مجنون ! أنت باص !»

كان يحقد على أهل الشمال ويكره كبريا ءهم، ويغضب من أصدقائه لضعفهم وعدم مقدرتهم على بنا ء سلالم عالية وأبراج تخترق لب الكون، ليتمكنوا من مواجهة عدوهم مواجهة الند للند.

«أفكارنا ما تزال أفقية ! نحن لا نعرف كيف نتسلق خيوط الشمس».

هو متأكد من ذلك، ولا يقبل مناقشة في الموضوع. إنما ينزوي في غرفته ويشرع في متابعة أحلامه وتقفّى أثرها. أحلام جبارة، لن يتمكن حمو من تحقيقها البتة، فهو لا يفكر مجرد التفكير في ذلك. إرادته انحصرت في الإبداع الخيالي فحسب. كان فقط يدوّن تلك الأحلام، بعد أن يرقّمها، في سجل خاص، يحتفظ به كمن يحتفظ بكنز من الذهب. إنه يرجع إليه في أوقات الملل والسآمة، يمضي مدة كبيرة في تصفّحه، وتبدو على محياه دلائل الابتهاج والمتعة. كان لا يسمح لزخروفة في مثل هذه الحالات أن تقطع عليه لذّته تلك أو أن تطلب منه أي شيء.

فهاهو يغرق بين الصفحات والخطوط المعوجة، يتتبعها حرفا بحرف و يضحك من رداءة خطه، من ضعف تراكيبه الأسلوبية، من الهفوات الكثيرة والأخطا ء المتعددة والهنات اللغوية ؛ لكنه لا يحاول أبدا أن يصلحها أو يضفي عليها قليلا من رونق الأسلوب وسلاسة التعبير. كان يفضلها كما هي ولا يقبل عليها تبديلا،

بل ويعتبره تزويرا لإحساساته الماضية وتحريفا بشعا لتداعياته وأحلامه.

غير أنه في الآونة الأخيرة أخذ يحس بأشياء مفزعة. أشياء تثير القلق في ذاته، وتتلاعب به الشكوك. هو ينظر إلى أهل الجنوب نظرة هلعة يائسة، تتمحور داخلها آلاف الأسئلة المقلقة التي لا تعثر لها على جواب. هل هم نيام ؟... هل أصابهم الجمود ؟... إلى متى ستدوم زغاريدهم وولولاتهم الرتيبة التي تشل مفاصل الزمن وتصبغ على المنطقة كلها طابع العصور الأولى ؟... هل من زلزال ؟... هل من إعصار ؟...

ويلتفت إلى الغرب. أمازالوا يفرغون زجاجات «التكيلا» في حناجرهم ويغنون للحب والسلام، والتّفاهم مع عملاق الشمال الذي يُظلّهم تحت جناحه الفولاذي ؟ إلى متى يحلمون بهزم الثيران على أنغام الكوريدا ورقصات «الكرامنسيتا» ؟

وينظر إلى الشرق، يتساءل : «أين الشرق ؟» الدخان يحجبه عن الأبصار، لم تعد الشمس تطلع منه ! إنه يسمع عنه فقط. يسمع عن دائرة الدم التي انغلقت حوله، يسمع عن صفارة الإنذار التي لا تنذر، وعن تناحر الأشقاء، ويسمع عن دق الطبول والنواقيس، وعن بوارق الانفراج التي سرعان ما تنخفت وتفسح المجال للاقتتال والمطاحنة في الظلام الدامس.

بينما يكتفي أهل الشمال بمتعة النظر ولذة الرؤية، من أعالي أسوارهم. إن مشاهدا كهذه أو تلك، تبعث في نفوسهم روح الطمأنينة

والاعتزاز وتقوّي عزمهم على السيطرة والاستبداد، والتحكم في أمور العالم كما يحلو لهم وحسب مصالحهم الخاصة. إنهم يرفضون أن تستقيم المدينة على رأي واحد وهدف واحد.

إن حمو يكاد يتحول إلى إنسان غير ذلك الذي ألفه واعتاد عليه، خلال أسابيع قليلة. صار لا يحلم إلا نادرا ويتساءل كثيرا. طرأ عليه نوع من التغيير المفاجئ، بث الرعب في قلبه وسيطر على حواسه. شعوراته الماضية صارت تثير التقزز في نفسه. فهاهو ينظر إلى سجله الضخم نظرة المتشكّك في أمره. أصبح لا يطيق قراءة ما كتبه، كأن شيئا ما حدث وغير فجأة فحواه ؛ كأن السطور مرت عليها نظرات غير نظراته ؛ مسحتها عيون جاهلة بأشعة باردة، جعلتها تفقد من أصالتها. وشيئا فشيئا دب فيه الإحساس بأن هنالك من توصل إلى وضع يده على خزينة أحلامه، على كنزه الذي لا يقدر بثمن، كونه كان يعتبر إنتاجه ذاك، بغض النظر عن اللغة والأسلوب، إبداعا لا مثيل له وآية التفاعل الخلّاق. بل إنه كان يعتقد بكل جوارحه بأن روحه توجد هناك، بين طيات تلك المخطوطة التي أمضى في كتابتها قرابة عشرين سنة.

– «ترى، من هو هذا المعتدي على عصارة أحلامي وآمالي وأماني ؟ من يكون هذا المجرم اللئيم الذي دنّس روحي بأصابعه النتنة وطمس خطوط أناملي ببصماته الهمجية ؟ من... ؟

– لا، لا يمكن أن تكون أمي ! هي متأدبة ولا تفتش حياة الآخرين، حتى ولو كانوا أقرب الناس إليها. وأبي لا يدخل غرفتي أبدا، ربما لأسباب دينية بحتة.

– إنها زخروفة. ليس هناك مجال للشك ! »

وانقطع حمو فجأة عن تدوين أحلامه النادرة،حتى لو كانت بالغة الخطورة والأهمية، حتى لو كانت جواهر من نوع فريد، ليس بإمكان أي بشر أن ينتجها أو أن يحل رموزها ومعانيها. وانقطع كذلك عن عمله بالمتحف البلدي نهائيا، رغم إلحاحات كامل أفراد أسرته عليه، وخاصة زوجته التي كانت تقنبله بالأسئلة التي لا علاقة لها بالمشكلة. إنها لا تفقه معنى لأمور الحياة، ولا تعرف حرفا واحدا من حروف ذاته المتشعّبة العميقة. كيف أمكن له أن يعيش كل هذه السنين مع امرأة كهذة ؟ كيف... ؟ لا بد له من الطلاق، بل هو بصدد التفكير فيه. لقد انقطع أيضا عن التساؤل وصار يفكر فقط، وبأمر واحد لا يستطيع أن يحيد عنه. حتى ولو حاول عمدا وبكل إرادته أن يجتهد في الابتعاد عنه وعدم التفكير فيه، لما تمكن من ذلك.

لقد أصبح لا يهتم لأمر من الأمور، ولا يكترث لما يحدث في الغرب أو الشرق من مآسى ومظالم ومجازر، ولا يعتري قلبه هم على أبناء حيه، أهل الجنوب ؛ ولا يحقد على سلاطين الشمال أو يأبه لما يقومون به من فساد في الأرض. همه الوحيد هو أن ينفصل عن زخروفة، بصفة تامة. بل إنه يذهب أبعد من ذلك... نظراته

الطويلة، الهادئة حينا والشاردة أحيانا، ضحكاته الهيستيرية الحادة، مكوثه المستمر بغرفة النوم والذي كان يطول لأيام عديدة، واستواءه الدائم على السرير، لا يغادره إلا ليذهب للمرحاض. كل ذلك أسدل على أسرته ستار الحزن المقلق، الذي يخبئ وراءه الضربة القاضية على التوازن، ويصبغ عليها طابع الانتظار المزعج إلى أبعد الحدود.

إن أمه هي الأخرى أطاح بها مارد الشيخوخة والمرض، ولزمت الفراش بعد أن حطمها اليأس عليه وأورثها كمدا لم يبارحها حتى وفاتها، بعد عامين من ذلك. أما أبوه، فقد انكفأ على ذاته وتحولت نرفزته إلى حسرة دائمة. والواقع أنه لم يحتط للأمر قط، ولم يكن لينتظره بتاتا. لذلك كانت غيبوبة حمو الجنونية بمثابة زلزال هد أركان كيانه هدا زعزع واقعيته، وجعله يزداد عبوسا على عبوس. إنه يلجأ إلى البهو، كل مساء، حيث يتربع على جلد نعجة ويمضي زهاء نصف الليل في تلاوة القرآن، بصوت يكاد يبعث الأرواح من مجاثمها ويحيي الأموات.

وتغرق زخروفة في البكاء كلما هدأت ضحكات حمو المدوية أو انقطع سكونه الممتد، لتسمعه يقول بصوت أجش كأنما ينبعث من عمق حنجرة لا إنسانية، صوت يثير القشعريرة في جسمها.

– «سأرحل. إنني راحل... أريد الشمس!» ثم يعود إلى ضحكته الجنونية أو إلى صمته الطويل.

كانت المسكينة متأكدة من أنه يتحدث عن الموت ويريد استعجال الرحيل إلى العالم الآخر، فيصيبها الوهن والجمود التام.

– «بالله ماذا فعلت له لكي يفضل الموت علي ؟!» إنها تلقي بالمسؤولية على عاتقها وتخشى أن يتهمها والداه بالجريمة، غير أنها سرعان ما تبرئ نفسها.

– «ولكن، ألا تكون العائلة كلها قد شاركت، بطريقة أو بأخرى، في دفعه إلى هذه الحالة الرهيبة ؟ نعم، كلهم مسؤولون وهو أيضا وبالدرجة الأولى، ليس هناك أحد يعرف ذلك خيرا مني !».

وتمضي الأيام والأسابيع، وأهل الدار يخضعون لوتيرة واحدة، يعيشون جوا جهنميا بحتا، حيث يهرم الزمن على وجه العجوز المصفر كالليمونة الناضجة. إنها بحق «سيزيف» الأسرة الذي كان يكوم التعاسة في صدره، في محاولة يائسة لتقيئها خارج المنزل.

لم يعد أحد يحتمل نظرات الآخر خلف هذه الجدران التي اسودت من فرط الإهمال، وبدت عليها مرارة الأجيال. حتى أن زخروفة صارت تفكر بأن الجن قد استوطن هناك، وأصبحت تنصت لتلك الطقطقة الغريبة المنطلقة من الدهليز، والهلع ينفض قلبها نفضا. غير أنها لا تجرؤ على محادثة أحد في الأمر، مخافة أن ينظر إليها الآخرون، وخاصة ذلك النفر القليل من الأقارب، بنفس النظرة الميتافيزيقية التي يلقونها على حمو.

وحتى الطبيب الذي هو من أقدم أصدقاء الأب، يبدو أنه جاء متأخرا للغاية، وإلا لكان أعاد الأمور إلى مجراها. لذلك فهو ينصح قاسا بأن يضع ابنه في حوزة طبيب نفساني متخصص، لعل ذلك يأتي بنتيجة. «من يدري ؟ فالأقدار بيد الله !» وبعد أن يتجرع بأسرع ما يكون فنجان القهوة، ينهض للانصراف كمن يهم بالفرار من مكان مسحور.

لقد انقطعت زياراته تدريجيا، وكذلك الحال بالنسبة للأقارب والأصدقاء. لم يعد أحد يطرق باب الدار منذ مدة طويلة، ولا من أحد يفتحه للخروج منها عدا الأب، الذي كان يقصد السوق مرة في الأسبوع لابتياع بعض اللوازم فحسب. إن احتياطاته المالية بدأت تنضب شيئا فشيئا، وأجرة التقاعد التي يتقاضاها كل ثلاثة أشهر غير كافية لجلب الضروريات فما بالك بالأدوية الباهظة الثمن، التي كان محتما عليه جلبها لزوجته العجوز ولولده. إلا أن حمو كان يرفض تناولها ويرمي بها في المرحاض، مما جعل الأب يعدل عن ابتياعها تماما.

وذات صباح، استيقظت زخروفة كعادتها باكرا، وفركت عينيها من آثار النعاس، ولما فتحتهما واسعا، اشتدّت دهشتها، إذ كان السرير فارغا. وتيقنت من أن حمو بالمرحاض. إنه لم يذهب هناك منذ عشرة أيام على الأقل. كانت متأكدة خلال تلك الفترة بأن زوجها سيودع الحياة، بين لحظة وأخرى. هو لا يأكل إلا قليلا جدا

ونادرا ، كما أن ضحكاته الهيستيرية قد انقطعت نهائيا . لقد صار فقط يردد ، بين الآن والآن، جملته الغريبة تلك، بصوته المكبوت.

– «سأرحل... إنني راحل... أريد الشمس... أين الشمس ؟... » يغرق بعدها في صمته الحجري، لا يخرج منه إلا ليعيد نفس الجملة وبنفس النبرات المنهارة.

وأسرعت زخروفة إلى غرفة الأم لتزف لها بالبشرى معتبرة تحرك زوجها علامة خير، وبينما هي تقطع الدهليز بخطواتها الواسعة، فوجئت بخروج شيخها قاسا من المرحاض ! وأحست للحظتها بأن شيئا ما قد حدث ؛ شيء لم تكن لتتوقعه البتة. وبادرت بالتفتيش عنه في جميع أركان المنزل بدون جدوى، ثم أخذت تلطم وجهها بضراوة وتولول بأعلى صوتها وتصيح :

– «أين أنت يا حمو ؟ أين أنت... ؟ هل رحلت هذه الليلة يا حمو ؟ هل رحلت... ؟

أما قاسا فأسرع إلى غرفة ولده، ولما وجد السرير خاويا ، أصابه نوع من الذهول وكادت أرجله لا تحمله، لكنه تحامل على نفسه وعاد إلى زخروفة ليسألها ، فوجدها يكاد يغمى عليها من العويل ؛ ثم انتقل إلى بيت زوجته العجوز، التي كادت تسقط من فراشها ليعيدها إليه، ثم ليحاول أن يهدئ من روعها ومن شهيقها المفزع.

– «أعدك أنني سأبحث عنه... لا أظنه سيذهب بعيدا... لعلها نزهة ويعود ! »

التحجّر

إنه واقف، يتأمل ولا يتأمل، ينظر إلى الحياة، أمام قدميه وحوله... أشياء و أشياء ! كانت الريح تهب، وكان يحسها في شعره وعلى وجنتيه ؛ ومع ذلك فهو لا يكترث لها. وهناك، على بعد أمتار منه، يلتمع الإسفلت بأضواء الحوانيت. لقد سقط المطر بغزارة طول المساء، وقد يعيد الكرة أثناء الليل... السيارات تمر بصوت كأزيز المنشار الآلي على صفائح من خشب، وتختفي تدريجيا، على آخر الشارع الذي يبدو وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية. لقد كانت تثير في نفسه شعورا متزايدا بالبرد. حتى المارة كانوا يسرعون الخطو، لا يلمّون بشيء، لكأنهم قطع من حديد يجذبها مغناطيس منازلهم الدافئة أو الباردة، على حد سواء. يغلقونها وراءهم بستة عشر، حسب التعبير العامي، ليخلدوا بعدئذ إلى عالمهم الليلي.

رفع رأسه هنيهة إلى السماء ؛ لاحظ غياب النجوم منها، ثم عاد يجول ببصره في الشارع المهجور. لعله كان لا يجد في جدار الغيوم المعتم ما يغريه بالتعلق بالسماء. مؤكد أنه خلق ليبقى ملتصقا بالأرض، وحالته تلك، هيّ هيّ، لا يمكنها التبدل ! بل إنه مقتنع بأن ذريته لو يتأتّى لها الوجود، ستبقى هي الأخرى ملتصقة بالأرض، متشبثة بها. لا لشيء إلاّ لأن الذهب سيضل دوما سيد الموقف، والسلطة الإطار الذي يهيمن عليه، و هو لا يملك هذا ولا تلك.

وضع يده في جيبه وأخرج علبة السجائر. فكر :

« – لماذا أدخن هكذا »

تخيل أنه مدخنة. قال في نفسه :

« – سأموت من التدخين ومن داء السرطان بالذات ! »

انتشل إثرها لفافة، ثم استدار للخلف، محاذرا الريح ليشعلها وطفق يدخن بشدة.

«ماذا يهمّ مادمت سأموت ؟ .. مدخنة أو إنسان أو أيّ شيء آخر... مآله الزوال ! ماذا يهم ؟...

عاد يحدق من جديد بالطريق المبللة، والريح تعبث بشعره وبأغصان الأشجار المتناثرة على الأرصفة، وكأنها وجدت هنا بمحض الصدفة وبدون أيّ نظام.

– لا !.. الحياة جريمة ! قرر في ذاته.

تدفقت الذكريات وكأنها سيل جارف. عندما كان شابا، كان يستلذ طقطقة المطر على مظلته وهو متخذا طريقه وسط جيش

من الفتيان و الفتيات بشارع بسكرة، الذي يشق المدينة شقين، وطبقات السكان - في أكثر من حيّ ومكان - إلى طبقتين : أغنياء جدد متكاثرون، وفقراء الأبد المهزومين. كانت المظلة السوداء عبارة عن لعبة سحرية، شكل من الأشكال التي تحدو بشخصيته المسرحية المبدعة إلى التفجر في حركات يتخيلها فنية باهرة. فهو يستعملها بحذر ومهارة فائقين، مثله في ذلك كمثل من يسوق سيارة بأكثر شوارع العاصمة ازدحاما. يرمق هاته بنظرة «روميو» ويرشق تلك بابتسامة «وديع الصافي» ويشعل سيجارته بحركة بهلوانية مثيرة.

وكان أيضا يحب المكوث طويلا بأحد المقاهي «الجاثمة» بمرات بن بولعيد، والتي كانت تبدو له في بعض الأحيان ككهوف بدائية، ليثرثر بكل حماس مع شلّة من أصدقائه، عن كل ما يجري حواليهم من أحداث، وحتّى عن لا شيء، لكي يميعوا الفراغ الهائل والمحيط بهم. وتمر الساعات دون أن يشعروا بها. لقد كان يحب «قتل» الوقت، مهما كانت الطريقة. ولم لا ! فالوقت أبخس ما لديه. إنه يملك منه الكثير والكثير. ولكن أين يمضيه يا ترى ؟ أين... ؟

راح ينفخ على سيجارته بقوة. نمّت عنه ابتسامة سرعانما انطفأت. فهو لا يستطيع أن يركز على صورة من الصور التي كان يعرضها عليه خياله : نماذج من المداخن التي شاهدها في حياته. والواقع أنه لم يكن مقتنعا بإضفائه شكل المدخنة على شخصه.

تساءل حينها في سرّه.

– ترى هل سأكون سعيدا لو كنت مدخنة لمصنع النسيج مثلا ؟...

وأدرك للحال بأنّ المقارنة ليست من الجدية بحيث تمكنه من الرد. خيّم على ذاته سكون مريب. بينما ملأ آذانه صرير شاحنة وهي تمرّ في سرعة مذهلة على الطريق الموازي من الناحية الجنوبية. الشيء الذي جعله يعود للتو للتحديق فيما حوله. لقد أخذ يحس بالبرد يقضم رجليه وينفذ إلى جسمه عبر الصدار.

« – أعود للمنزل ؟ » كاد أن يقرر، لولا أنه تذكر ما ينتظره هناك. إنّه متيقن من أنّه لن يجد شيئا. لا، ولا حتّى الفراغ...

ألقى ما تبقّى من اللّفافة في بركة ماء صغيرة، تكونت نتيجة انحناء في الرصيف ثم وقع بصره على شيء أسود يتململ فوق سقف دار البلدية. جالت بذهنه قصة «القط الأسود » لإدڤار ألان پو. حاول أن يتذكر تفاصيلها ولكنه عجز عن ذلك. لقد قرأها منذ شهرين فقط. تساءل :

– مالذي يحدث لي ؟ هل صار مخّي لا يصلح لشيء ؟ تبا لهذه الذاكرة الملعونة ! لو كان الأمر ممكنا لألقيت بها في سلة المهملات !

كانت الريح قد هدأت نسبيا، ولم يعد يسمع للأغصان العارية إلاّ ذلك الحفيف الواهي الذي يصدر عن احتكاكها، من حين لحين. وفي عرض الشارع، كانت الأضواء المنعكسة على صفحة المياه

تتضاءل شيئا فشيئا. أمّا البنايات فقد كانت تبدو له وكأنها غاضبة. لم يكن ليستطيع تفسير ذلك موضوعيا. كان يتصورها كأشخاص عابسة، أو لعلها متشائمة، وكان لديه شعور مبهم، كالذي يستيقظ فجأة من حلم مرعب ولا يتذكر منه شيئا. إنما فقط يحس بالخوف لفترة مع أنه لا يدرك المسبب.

أدخل يديه في جيوب معطفه الرمادي ليحميهما من البرد، ومسح طريق قسنطينة من الجنوب إلى الشمال بنظرة متفحصة بطيئة.

- كم مرة دست على هذا الطريق ؟

تساءل وهو يتوغل بنظراته في جوف الناحية الشمالية منه حيث يتكاثف الظلام تحت الأشجار. وعادت الذكريات متمردة عنيفة.

كان لا يزال فتى حينذاك. وكان يعشق إحدى فتيات المتوسطة، يبني ويهدم حولها إمبراطوريات برمتها. إن رمقته بنظرة، ترقبها طول النهار، مستجمعا في عينيه كل ما أمكنه من الحنان ليسكبه بعد ذلك في عينيها أول ما تتاح له الفرصة، عبر نظرة شغوف تعرف كيف ترد الجميل. وإن ابتسمت له، لاحقته صورتها مدى الليل، لا يغمض له جفن ولا يكفّ خياله عن نسج أحلام تتحدى الواقع وقوانينه، وتقفز به عبر الشفافية و اللّازوردية إلى ما هو أبعد منهما وأرق.

وفي الصباح الباكر، يمرق من سريره كمن يتأهب لسفر عاجل، ثم يزيح الستار عن مسرحية الحياة المتجددة بآمالها وأمانيها

ليدخل مباشرة ضوضاء النهار وقلبه ينبض بالأمل المتدفق في عروقه، أمام جمهور يهرول ذات اليمين وذات اليسار نحو أماكن مختلفة وأهداف متباينة. جمهور لا مبال، غائب، وكأنه يريد أن يتوارى عن الأنظار ليتسنّى له أن يفعل كلّ شيء في الخفاء...

كان يقطع المسافة من المنزل إلى المتوسطة في ظرف خمس دقائق، و هناك، يتسمر في مكان ما وينتظر، والأحلام تعصف برأسه.

«ماذا لو تقف له، تناديه بإسمه، ثم تضع يدها في يده وتطلب منه أن يأخذها إلى حيث شاء ! آه !»

و لكن ذلك لم يحدث، ولو مرة.. كانت تمرّ أمامه كعروسة بحر سرعانما تختفي بين زميلاتها، ثم خلف جدران المؤسسة. ويلتحق هو بالثانوية، متخلفا كعادته، متشائما. وخلال الدروس، كان يسرح به الخيال من جديد، ثائرا على الواقع، منتقما من المجتمع الذي كان يقف حجر عثرة في الطريق. فهاهي أخيرا تتوقف أمامه، تقف له، وأيّ وقفة ! إنّ الشمس لتسطع في بسمتها اللؤلؤية، والأمل يترقرق في عينيها و هي تهتف به :

«– حبيبي ! خذني.. خذني إلى حيث تشاء !»

وها هو يأخذ بيدها حقا وينطلق باتجاه مجهول، ومنذ ذلك الحين لم يعثر لهما على أثر. أما هما فيعيشان في سعادة تامة، بتلك المغارة النائية التي صادفها فجأة بين الأدغال والتي تفتح على عالم يتحدّى كل خيال. كل ذلك كان مجرد أحلام، كونه لم

يقم ببادرة تستحق الذكر ولم يفكر حتى بالزواج عندما بلغ سنّ الرجولة.

لفت انتباهه ضوء سيارة من أسفل طريق قسنطينة متجهة نحو الجنوب. كانت تقترب منه بسرعة فائقة، وتأكد عند مرورها أمامه من أنّ الركاب كلهم شباب، وبدا له أنهم في حالة سكر.

« مجانين ! فكر في قرارة نفسه، سيؤدون بأنفسهم إلى التهلكة. إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لامرئ أن يتخلص من روحه بمثل هذه السهولة ! لا، ليس الأمر بهذه البساطة، إنها الحياة ! الحياة !! ».

وأدّى به التفكير إلى التذكر بأنّ هناك آلاف من الشباب يموتون يوميا بطريقة أو بأخرى، وفي ذلك شيء من الانتحار حتى ولو كانت الميتة طبيعية. بينما بقيت نظراته متعلقة بذيل السيارة وهي توغل في الظلام، بين الثكنتين، باتجاه مدينة تازولت (لامبيز).

ارتعشت الأشجار حوله، وأخذت الريح تشدّ على أردان معطفه المفتوح. لقد ازدادت حدّة بعد الهدوء النسبي وامتزج صفيرها بأصوات شتى. في حين تساقط الرذاذ معلنا عن غضب الطبيعة وهي تنذر بالهجوم. حتى القط الأسود الذي كان يقبع فوق قرميد دار البلدية، قد غارد مكانه إلى حيث يأمن شرّها. تساءل :

– هل يجب أن أعود للدّار ؟... ولماذا ؟ أهو الخوف من المطر ؟ ... و المنزل ؟...

تصور غرفته الضيقة. طاولة صغيرة عتيقة تحمل كتبه المتراصة ودفاتره وحقيبة ثيابه، وسرير ذو مكانين يكاد يغلق الحيّز المتبقي من المساحة، عريض وفارغ.

بعض الصور تمثل مغارة بالهقار ومنظرا لجبال جرجرة تحت الثلوج وآخر لمدينة بني صاف كانت تزين الجدران، وعلى الأرض، بين الباب والطاولة والسرير، تلك اللوحة التي أراد أن يرسم عليها قريته غير أنّه فشل في ذلك. لقد بحث عن ريشته طويلا ولمّا يئس من العثور عليها عوّضها بأصابعه. و كانت النتيجة مزيجا غامضا من الألوان كما في تلك الصور المأخوذة من بعد يتجاوز قدرة الآلة المستعملة. وحتى بصماته، كانت لا ترى بوضوح.

« – المنزل ؟... هل هو النجاة ؟! لماذا لا أستوقف سيارة ؟ لعلّ الحظ سيساعدني. قد أدخل مدينة مشمسة، دائمة الإشراق... الحظ ؟ لا ! أكيد أنني لست محظوظا ! حتّى ولو، فإن السيارة لن تتوقف مهما أشرت ومهما صرخت. ستواصل طريقها و كأن السائق لا يراني، لا يسمعني، لا يشعر البتة بوجودي. »

إنّ البرد يتسلل عبر فتحات الأرجل إلى ساقيه وركبتيه من دون أن يحرك ساكنا. بل إنّه ليبدو كصنم حقيقي، لولا رفرفات معطفه الذي يكاد يتمزق. فكر برهة بغلق أزراره ليقي صدره من البلل، وفكّر أيضا بأن يدخن سيجارة، ولكنه لم يفعل. وبقي جامدا لكأنه يخضع لإرادة غير إرادته، أو لكأنّ إرادته هي ذاتها إرادة أخرى أو ربّما «لا إرادة أخرى»... !

ألقى ببصره على واجهات المنازل القريبة، فبدت له وكأنّها ساخطة تحت البرق الذي لمع فجأة في عرض السماء ثم ما لبث أن ترك المجال للرعود التي قصفت بشدة تزعزع لها قلبه، لكنه ثبت في مكانه، شارد الفكر، لكأنّه منوّم. مرّر نظرته التائهة على الساعة المثبتتة بأعلى مبنى البلدية. كانت معطلة. وكان يعرف ذلك مسبقا، لكنه لا يستطيع أن يذكر ولو بالتقريب متى وقع ذلك. فذاكرته لا تحفظ إلّا ما يشحذ الخنجر المغروس في قلبه، ويذكي اللهب المتأجج في عروقه، بدون جدوى. هل يمكنه القول بأنّ ماضيه أثقل من أن يحمل وبأنّه يحترق لأية ذكرى منه ؛ بأنّ حاضره مغلق وبأنّه لا ينتظر شيئا آخر من الحياة ؟!.

لا ! فماضيه عادي جدّا... يكاد يكون تافها... جملة واحدة تكفي لتلخيصه، ومستقبله لا يمكن أن يكون غير ذلك أيضا. بإمكانه تصوره كلية خلال لحظة قصيرة.فهو لا يتوقع تغييرا في معيشته ولو قدر له أن يحيا لمدة قرن بكامله. وحاضره ؟ لا ! ليس هناك شيء اسمه الحاضر ! إنّه لمن البلادة بمكان أن...

قال صوت بداخله :

– لا، بالطبع !

وجاء صوت ثان من أعماقه يؤكد :

– حياتك سطحية فارغة، كهذا الشارع المهجور... حياتك، قهقهات في الظلام الدامس ومنبعثة من مصدر مجهول... أيّامك

تتشابه كحبات الرّمل... أحلامك العتيقة تهاب النور، لا يمكنها أن تزحف على أرضية الواقع، تحولت إلى ظلال، ثم أتى عليها الضباب... الأمل الذي ينشب أظافره في صدرك... لكنه يصطدم بالجمود... يصير جمادا... ويتدخل الصوت الأول متسائلا :

– لماذا أعيش إذن ؟ لماذا ؟

– لماذا ؟

– لأنك مجنون، مجنون بالطبع !

صدرت من أعماقه قهقهة غريبة هي أشبه ما تكون بحشرجة أو دمدمة مبحوحة منبعثة من كهف ما.

– إنّما فقط تتظاهر بالعكس وتلبس قناع الوقار وتفتعل الرزانة لتوهم الآخرين بأنك في حالة من التوازن التام، حتى لا تصغر في عيونهم ولا تدفن حيّا. ومع ذلك، فأنت تقع في الفخّ. لاحظ أنك تتضاءل تحت الأضواء الكاشفة حالما تفقد توازنك، ولو للحظة، أمام عيون المجتمع الذي يحتسب عليك كلّ خطوة. قل لي بالمرة، كم من قناع يغطّي الوجه الحقيقي للإنسان ؟ هل تعرف ؟ يعجزني أن أقترح عددا ولو كان نسبيا. يمكنني فقط أن أتخيله مثل الدّمى الروسية، إحداها في قلب الأخرى، وهكذا حتى أصغر نموذج...

– يمكنك الافتراض بأنني مجنون، ولكن هل تستطيع أن تجردني من واقعي ؟ إنني أعيشه ولو كان سطحيا وفارغا...

أنظر كيف صرت إلى الكهولة وقد كنت صبيّا. لا ! لا يمكنني أن أتصور بأنني مجرد خرافة !

– حتى الخرافة يحتفظ بوجودها ولا يقبل أن تموت. ومع ذلك، فهي تبقى مجرد خرافة...

تفاعلت عناصر الطبيعة حواليه ودوّى في الأجواء قصف رهيب.

«يجب أن أغلق المعطف !» قالها من دون أن يضطرب لذلك عضو من أعضائه، وكأنّه أصيب بالتحجّر.

– أأنت فعلا تخاف من المطر ؟ تساءل الصوت الأول، أتخشى أن تمحي المياه أسطورتك ؟

وبدأ المطر يهطل بقوة هذه المرّة، و«صهلت» الرياح و كأنها عفاريت تمرح في الشارع وتحدث صفيرا مهولا.

«ترى كم تكون الساعة الآن ؟» اعترف في قرارة ذاته بأنه يتساءل بدون جدوى. لقد ابتلت ثيابه وأخذ شعره يتقاطر بحبيبات الماء التي نفذت حتى إلى عنقه وظهره. تذكّر بأنّه أضاع مظلته في نهاية شتاء العام الماضي، داخل حافلة نقل بلدي، أو بأحد المقاهي، أو... هو لا يدري بالضبط أين.

– اللعنة ! قال الصوت الثاني. متى اشتري مظلة ؟

وردّ عليه الصوت الأول :

– نعم، متى تشتري مظلة ؟

الطبيب مات

(خيال معتوه)

كل مناطق الدنيا تصب في الأوراس... طبعا القارات تمزقت ! شرايين الكرة الأرضية انفجرت... تقطعت مفاصلها... وها هي إفريقيا وحيدة سوداء، وتلبس عمامة بيضاء... سوداء... وناضجة... سوداء، وقلبها ينبض بالأمل المتفجر ! ها هي إفريقيا تتململ بعنف وتكسر القيود... إفريقيا حيوان تعلم كيف يستيقظ من غيبوبته الشتائية الطويلة... إفريقيا تبدو كمجنونة وهي ترقص لمجيء الفجر... إفريقيا تقصف بجليد القرون وتتخلص من الزنجار... إفريقيا تنبثق من جديد... إفريقيا... آه... !

صحيح أن الطبيب حذرني من الحديث... قال لي : «يجب أن ترتاح هنا ! ووضع يده على رأسي. أما أنا فيبدو لي أنه هو المريض !

إنه يفتح درج مكتبه باستمرار، ويتناول أقراصا ملونة من علبة مستطيلة، مع جرعات من الماء الخاص به، الذي يأخذه من زجاجة يضعها في الدرج الآخر. ثم إن نظراته هاربة دوما مني... لماذا ؟ لا ! طبعا، هو المريض ! أؤكد لكم ذلك. تصوروا، طلب مني أن أرسم له أي شيء بالألوان، على ورقة بيضاء، فأخذت الورقة وأفرغت فيها علبة الألوان، ثم قدمتها إليه، فأعجب بها... نعم أعجب بها... وهنّأني على ذلك بعبارات رائعة... لكن عندما سألني أن أحدثه عن أمي، استوقفته، واقترحت أن نعكس الأدوار وأن يحدثني هو... لكنه لم يفعل وأغرق في الضحك... والآن هل تصدقوا بأني مريض ؟ !

إنه يقول بأنني أتعب نفسي بنفسي، وأنني أثير مشاعري وأحاسيسي لوحدي، لأنني أريد ذلك. طبعا، هو مخطئ... لكن، هل بإمكاني أن أكذّب الطبيب ؟ ! هل أقول له مثلا : كفى، سيدي ! إنني أعرف جيدا ما أفعل بوجودي، دعني وشأني. لا ! لا يمكن أن أقول له ذلك... نحن نتناقش كثيرا، ولعله أبرع ثرثار عرفته في حياتي... لكنني لا أستطيع أن أوجّه إليه كلاما كهذا... فأنا متأكد من مرضه، وأخشى أن يصاب بصدمة نفسية... أخشى أن تنهار أعصابه !

عندما يشتد الحوار بيننا، أراه يفتح الدرج، يتناول حبوبا ملونة ويبتلعها مع جرعة أو جرعتين من مائه الخاص... لقد طلبت منه ذات مرة، أن يناولني كأسا منه، كنت أحس بالعطش، لكنه

رفض، وأمر مساعدته أن تأتيني بزجاجة ماء من الغرفة المحاذية لمكتبه...

قلت له بأن مساعدته تلك تطيل النظر في عيني، ولما عدت في الموعد التالي، وجدته استخلفها بأخرى، أقل جمالا... لكنها هي أيضا كانت تغرس عينيها في عيني، قبل أن تقودني إلى مكتبه. غير أنني لن أحدثه بذلك... طبعا، لن أفعل ! ولكن، لندع الطبيب جانبا... سأتحدث بصراحة كالعادة. أنا لست مريضا... الوضع المعاش لا يناسبني فقط. هذا كل ما في الأمر. لكن أفراد أسرتي يعتقدون غير ذلك، يظنون بأنني في حاجة إلى عطفهم ومساندتهم لكي أسترجع التوازن المفقود... لا شك أنهم يهيئون لي مستقبلا سعيدا، في حضن إحدى بنات العم الأربع. هم لا يفهمون بأنهم هم المرضى... لماذا يقلقون أنفسهم من أجلي دون سبب واضح ؟ أعترف لكم بأن خيالي يتيه... بأنني أشعر أحيانا بالدوار... بأن دمائي تفسد عندما تحدث أمامي أشياء لا أستطيع تقبلها... ولكن أن يقال عني بأنني فقدت صوابي... فهذا ادّعاء باطل... مجرد خرافة...

تصوروا : ابنة عمي طلبت مني كتابا، فقدمته إليها. لم أقل لكم أنني شغوف بمطالعة الكتب وأملك الكثير منها رغم أن الطبيب يتهمني بعدم الفهم، وبالتطفل على أشياء بعيدة المنال. لكنها عادت في اليوم التالي وهي تزعم بأنني كتبت لها رسالة أفصح فيها عن خبايا قلبي، وضعتها داخل الكتاب. ولما أصررت

على أن تعيد إليّ الرسالة الموهومة، ادعت بأنها قد أحرقتها... أحرقت وهما ! فعلت ذلك لأنها لا تريد أن تضحك منها أخواتها وزميلاتها... لا يحق لمجنون مثلي أن يبوح بعواطفه، لفتاة مثلها، حتى ولو كان ذلك وهما ! أنا لا أتّهمها بالجنون... لكنني متيقن من أنها تنتظر أن أستعيد التوازن... تنتظر بفارغ الصبر أن أطأ أرض الواقع، لنبني عشا يمكن لأي شخص أن يتحسسه بأصابع يده... أن يتحقق من وجوده... عشا من الإسمنت والحديد، ونضع عليه «خمسة» بعين ترشق المارة بنبالها المضادة للحسد. هه ! لماذا لا أكتب لنفسي رسائلا ؟ وأنا أشد الناس حاجة إليها. هناك شبه صديق يكتب إليّ من حين إلى حين، ويدّعى بأنه يرفض مناصبا عالية لعدم المساس بمبادئه العليا... وهو لا يعرف له مبدأ ولا مذهبا، إنه يعمل في ميادين الجن والجنون ! لذا أتساءل أحيانا إن لم يكن قد مسه شيء من هذه الأشياء، التي لا ترى بالعين المجردة ولا بالمجهر... أما أنا فالواقع هو أنني لا أكتب رسائلا... لم أكتب رسالة واحدة في حياتي... ثم، إنني أكره الكتابة.

الطبيب يقول بأنها تمرين جيد لترويض الفكر وتحسين اللّغة... غير أنني أرفض هذه الفكرة... أفضل الحديث... دون منهج ومنهجية... دون شرط أو قيد... و بالطبع فأنا أتحدّث بصراحة.

عندما قلت للطبيب بأن عينه اليمنى جاحظة بعض الشيء، لم يتمالك نفسه وردّ علي بأن السبب هو أنا، كوني لا أهدأ في

مكان ! أما أنا، فقد تبينت الأمر : إنه دائم السكر، لا يعرف الصحوة أبدا. قال لي أحد المرضى بأن الزجاجة التي يحتفظ بها في درج مكتبه تحتوي على مشروب روحي وليس على الماء، وقال لي أيضا بأنه يمضي شهر رمضان بأوروبا لكي لا يصومه !

تصوروا، حكيم عالم لا يصوم رمضان ! أليس هذا هو الجنون بعينه ! ولقد سمعت أحد الشباب يقول بأن مثل هؤلاء الناس هم ألد أعداء الإشتراكية وأخطرهم على مكتسبات الجزائر... هم أعداء الشعب وأعداء معتقدات الشعب ! تخيلوا، شاب في الثامنة عشر يفكر هكذا... يفكر بأن المثقفين هم أعداء الشعب، إنه يتهم كبار الكتاب والمفكرين في البلاد بأشياء خطيرة... وأهمها اتجاههم المادي البشع. و هو يتهمهم أيضا بالأنانية، بفقدان الشعور بالكرامة و المبادئ السامية للإنسانية، بالتطفل على موائد الأغنياء، بالتطلع بنهم إلى كراسي الحكام والقادة، بالتنكر للعهود وللتاريخ... طبعا، لا يمكنني أن أتذكر كل ما بدر منه من أقوال... هي ليست أقوالا مأثورة، ولكنها لا تفتقد إلى المعنى... بكل صراحة، ما رأيكم ؟

لا أريد إحراجكم... أنتم أدرى بما يحدث... أما أنا فأثرثر فقط... ولست الوحيد فيما أعتقد. الطبيب مريض بالثرثرة. أذكر يوم ألقى علي خطابه... هو يسميه تقريرا ! دامت الجلسة مساء كاملا. لم يسمح لي طواله بكلمة واحدة. كنت أرى أسنانه الكبيرة ولا أدري لماذا أتخيل طاحونة المدينة العتيقة وهي تدور... تدور

و تدور... ثلاثون كلمة في الدقيقة... مائة. كان يخيل إليّ أنه اسطوانة تدور بسرعة غير عادية... أتصوره عملاقا مصلوبا على الكرة الأرضية وهي تدور بسرعة جنونية. لكنني لا أستطيع أن أتصوره صامتا... إنه يثرثر دون هوادة وهو يدور ملتصقا بالكرة الأرضية في سرعة الضوء... لكن، ماذا كنت أقول عن الكرة الأرضية ؟ بالله، ماذا كنت أقول ؟...

الشرايين انفجرت في الخيال. هي شرايين الكرة الأرضية. القارات انفصلت عن بعضها البعض. وها هي إفريقيا وحيدة، وتصارع الطغيان بشتى مظاهره. تصارع الفقر والاستغلال... تصارع القهر والفناء... تصارع الرمل والدمار. ها هي أنغولا وليبيا والجزائر... وفي قلب الجزائر تنبض القلوب وتهتز الجماهير بهتافات النصر... وفي قلب الجزائر تشيد الفيلات والأكواخ جنبا إلي جنب ويتحول الأطفال إلى تجار... أما أنا فأتهم بالجنون، بينما يحتفل الجميع بعيد الاستقلال... وفي قلب الجزائر المستقلة يظل الجنوب محاصرا بالرمال... لكن النصر آت... وسندحر الإمبريالية !

الطبيب يعتقد أنها هي وحدها المسؤولة عن الوضع هنا. أما أنا فغير متفق معه تماما في الرؤية، الشيء الذي يجعل المناقشة تحتد بيننا وتطول... دون فائدة : فهو لا يتفق مع أحد. ومع ذلك، فالمريض أنا... وهو الحكيم... بمعنى صاحب الحكمة ! كلنا يعرف أن بين الجنون والحكمة ذرة. يكفي أن تضيف ذرة إلى الكفة

الأخرى ليدخل العاقل هيكل الجنون، وقد تخلّص مرة واحدة من وقاره، فتعصف برأسه أعاصير شتى تندفع إليه من عالم آخر... وكذلك الطبيب. إنك تراه يتحدث عن شيء ثم ما يلبث أن يقفز إلى شيء آخر، وها هو يطرح عليك سؤالا يتعلق بموضوع كان قد تطرق إليه منذ شهر أو أكثر، أو لم يتطرق إليه بتاتا. ولا يدعك تجيب حتى يباشرك بملاحظة قد لا تخص السؤال ولا تخصك أنت كمريض، ولا تخص شيئا يرتبط بما يهمك، أو يهمه هو... ملاحظة لمجرد الملاحظة... لمجرد أن «الشيء» اعترض مسار حديثه أو أفكاره... ثم يجرك إلى مواضيع أخرى، وجدال لا قبل للبيزنطيين ولا للشياطين به... والعجيب أنه يعتبر شخصه نابغة في فنون الكلام والمحادثة... والتجسس على الذات والروح... وهو مع ذلك يحذرني من الحديث الفارغ ويدّعي بأنني ثرثار وبأن هذا ما يزيد حالتي توترا، لأنني أثير مشاعري بنفسي وأسكب الزيت على النار.

أذكر أنه سألني ذات مرة إن كنت قد أحببت امرأة في حياتي. ولما أجبته بأنني وقعت في شراك الحب أكثر من مرة، ضحك بصوت عال وقال : «مستحيل، لا يمكن لشخص أن يحب أكثر من امرأة واحدة. هو لا يفترض بأنني كنت صادقا عندما أجبت، لا يؤمن بأنّ حبّا يدوم عشرين سنة مثلا ضرب من الانتحار، لا يصدق بأن سر الوجود يكمن في الحرية والانطلاق، لا يعرف بأن القيود مهما تباين شكلها ولونها تبقى قيودا، لا يفهم بأن التغير

نحو الأفضل هو أحد أسرار السعادة التي ينشدها أي مخلوق. أليس الإنسان عابر سبيل على درب مجهول ؟ إنه لا يعرف عن ماضيه إلا الشيء القليل... وهو يجهل ما يخفيه المستقبل من شر وخير... وحتى الشر والخير فهو لا يعرف لهما حدودا واضحة... لا يمكنه الفصل بينهما بدقة... هل من المقعول أن نتحدث عن التجربة البشرية دون أن ندخل في مناقشات عشوائية ؟ فلسفاتنا ضبابية... علومنا تضحك الأطفال ويقهقه لها الشيوخ، إنها تقف عاجزة أمام أهم مشاكل الإنسان وتتلاعب بها رياح السياسة والاقتصاد في أسواق شتى...

الطبيب حاقد عليّ لأجل ما قلته عن علوم النفس والطب، رغم أنني لا أزعم البتة معرفة هذين العلمين معرفة تستحق الذكر. فقط، لاحظت بأن علماء النفس هم أضعف من أن يعالجوا ملايين المجانين المنتشرين في كل ربوع الأرض... وبأن الطب الحديث بطرقه الاصطناعية المتنوعة هو أعجز من أن يطور الجسم ويمنعه من هجمات العالم الخارجي...

لقد جن جنونه يومذاك، وكاد أن يشتمني... حكيم ! نعم كاد أن يفعل ذلك، لولا أن مساعدته دخلت علينا في تلك اللحظة وهي تحمل كوب الشاي. لقد تعوّدت شرب الشاي عنده في الأسابيع الأخيرة... وكان هو يغترف من مائه الخاص... وتجحظ عيناه وتحمر كحبّتي كرز... لكنه لا يأتلي يبتلع حبوبه ويدخن ويشرب كميات من ذلك الماء حتى يتجمد في مكانه... فأخرج... كانت

المساعدة تقترب مني... وتلهث... في الدهليز... كنت أنفلت منها إلى الشارع، حيث يشيب الظلام على سجائر الشباب وفي عيونهم، وهم يذرعونه جيئة وذهابا دون كلل.

تصوروا. سألني ذات مرة وهو يستشيط غضبا :

– وأنت... أنت، ماذا فعلت ؟

و لما أجبته «أنا لم أفعل شيئا... أستطيع أن أفتخر بأنني لم أفعل شيئا»، ازداد غضبا وقال :

– من لا يفعل شيئا فهو ميت !

لكنني سألته بدوري، وأنت، ماذا فعلت ؟ فقال لي بأنه سيفعل، وسيفعل الكثير... فما كان مني إلا أن سألته ثانية... وثالثة... واحتد النقاش... وها هو يفتح الدرج ويخرج ماءه الخاص... وها هي الأقراص الملونة تسقط في بلعومه... ومساعدته ؟ أين هي مساعدته ؟

كان قد طردها في الأسبوع الماضي... وانتهى به الأمر إلى أن يطردني، أنا، من مكتبه، ليخلو إلى زجاجته وأقراصه... صحيح أنه فعل ذلك بطريقة مؤدبة... لكنني متيقن من أنه مصاب بمس من الجنون... أعتقد ذلك.

يومها فكرت بأن لا أعود إلى مكتبه أبدا، ولكن ماكادت الشمس تغرب حتى وجدتّني أناقشه من جديد. طبعا، كان ذلك مجرد وهم، لأن الطبيب كان يتمثل في نقطة معينة على الخريطة

المطروحة أمامي على الأرض. نقطة تشكل شخصا متخفيا خلف نظّارتيه الواسعتين، وأصبعا يشير إلي ويبدو وكأنه يتهمني بالأنانية، وعدم الرأفة بإنسان مثله واهي الإرادة، عديم التوازن ومتعب الأعصاب... وفي الأخير قررت أن أزوره بعد العشاء... وقلت لنفسي : ليكن ما يكون !

طرقت على بابه تماما عند الساعة التاسعة ليلا. كان الشارع جثة هامدة، وتناهت إليّ نغمات موسيقى هادئة. عدت إلى الطّرْق... لا شيء. حتى الموسيقى خفتت، الشارع لفظ أنفاسه الأخيرة وسرَت فيه برودة الخنادق الرطبة. طرقت من جديد بقوة متزايدة. لا أحد يجيب. تساءلت : هل أنا في مقبرة ؟

و عدت أدراجي إلى المنزل. أغلقت باب غرفتي بالمفتاح، وطرحت الخريطة أرضا، بسطتها جيدا. ورحت أرمق حذافر إفريقيا... ذيلها المعقوف... بطنها الهزيل... خصلاتها السوداء... وقلبها... قلبها الأبيض الكبير... كان ينبض بالأمل... يرقص لأغاني الفجر... لفجر عذريّ جديد... لأيام العزة الأولى... الطبيب يعتقد أنها منبع الحضارات، وهي النقطة الوحيدة التي أوافقه فيها، على أننا نختلف في تعيين المكان بالضبط، داخل هذه القارة العريضة الأرجاء، هو يتحدث عن الجنوب، وأنا عن الشمال. هو يتكلم عن الزنوج وعن السحر والموسيقى والمعتقدات، وأنا عن علوم الكيمياء وتحويل المعادن، عن حضارة أطلنطا والطاسيلي، عن عجائب الصحراء وغرائب الجبال في الشمال... وكثيرا ما كان يقاطعني :

– هه ! حضارة بلا عمران... امبراطورية بدون قصور... هه...

لعل الملوك القدامى لهذه المنطقة، كماسينيسا وسيفاكس مثلا، كانوا يقطنون الكهوف ! أو لعل «كيرتا» القديمة وهم من أوهام التاريخ ! الطبيب يزعم بأن كل ما أتفوه به هراء في هراء، ذلك أنني أجهل – حسب قوله – الظروف التي يجب أن تتواجد لتتوفر شروط الحضارة والعمران والتكنولوجيا... طبعا، هو لا يعترف لي بقدرة الفهم حتى لأبسط الأمور... إنه يريد توجيهي وجهة خاصة... وقد اختار لي مهنة الألوان....

– يمكن أن تصير ماهرا في فنون الرسم... تنقصك الأفكار... الثقافة... لكن مع الزمن... لماذا تبتسم هكذا ؟

و فعلا، كنت أبتسم كل مرة يخطط فيها لحياتي، دون الأخذ برأيي... وكأنني لا أملك أن أقدم رأيا، حتى ولو كان الأمر يتعلق بمستقبلي، أنا !

– ابتسم ! ابتسم فقط.

– هل أنت ملاك ؟

– لا، أنا لا أدّعي ذلك... لماذا ؟

– لا، حتى الملائكة لا يبتسمون بدون سبب !

وهاهو يشعل سيجارة أخرى... ويأخذه السعال للنفخة الأولى... غير أنه يستمر في التدخين... ويتجرع كأسا مليئة بمائه الخاص.

– والأقراص ؟ أسأله بلا مبالاة... أضع في عيني نظرات مغفل.

– الأقراص ؟ ! آه، الأقراص، معك حق... كدت أنساها.

ثم يتناول الأقراص، ويملأ كأسه من جديد... متابعا :

– هناك أشياء تحدث في رأسي... لا يمكنك أن تفهم ذلك... ينبغي أن تكون مثقفا كبيرا... ولكن لماذا ؟ يكفي أن تهتم بالألوان.. فأنت ولا شك مخلوق لكي تعبر بالرسم... التجارب التي قمت بها تثبت ذلك... ولكن... صحيح ! ينبغي أن أكون مثقفا... أن أطرد من ذاكرتي تلك الصور التي تسيطر على ذهني وأن أكرّس جهودي لخدمة الفن... الفن و الثقافة !...

– لا شك أن المستقبل سيكون زاهيا، يواصل الطبيب و هو ينفخ عليّ سيجارته كالمدخنة، ستستقرّ في منزل متواضع جميل، وستكون لك زوجة جميلة...

إنه يؤكد لي بأن حدسه لا يخطئ أبدا، وبأنه يشتم رائحة المستقبل قبل أن يجلبها إليه ريح السنين العاتي. ولقد سألته مرة متهكّما :

– متى توافيني المنية، يا حكيم ؟

فرد من دون تردد :

– بعد أن تبلغ الستين. وتمتم مضيفا، ككل الأغبياء في هذا الوجود.

لا ! لا يمكن أن تصدّقوا بأنّني أنا المريض ! إنّ هذا الرجل الذي يتحدث بهذه الطريقة، غير بعيد عن الستين... وقد يكون بلغها. وهو يدّعي بأنه لم يتجاوز الخامسة والخمسين... ولا زال يحلم بمستقبل رائع... إنّ روحه تتهادى برقة على صفحات الكتاب الضخم الذي سيكتبه للبشريّة جمعاء... أفكاره ستحلق في الأجواء لتتألق كالثريا بين النجوم... عبقريّته المبدعة مشعل سينير الطريق للإنسانية الضعيفة، والتي ما فتئت تتعثّر بمعاقل البطش والاستبداد، وتكبو كبوة الضرير في سجون التيه والظلام.

عدت في اليوم التالي، بعد القيلولة، قرعت الباب... كان هناك قط ينام إزاء جدار المنزل، فرفع رأسه، وحدجني بنظرة زمردية، ثم أخذ يتململ، ولما أعدت القرع، وثب من مكانه مذعورا وغاب وراء الزاوية. لا أحد يجيب من الداخل... وضعت أذني على فتحة المفتاح ورحت أجسّ نبض المنزل... هامد ! ومع ذلك فكان يبدو لي أن همسا غريبا يتسرب في أجواء الغرف والدهليز كالدخان. لن أتصوّر مطلقا أن دار الطبيب ستخلو من الثرثرة في يوم من الأيام، حتى ولو غادرها إلى غير رجعة... لكأنّ كل شيئ فيها يشترك معه في تلك العادة الخبيثة... لكأن الجدران والأبواب و النوافذ والقرميد تطبعوا بطبعه، وسَرت في كل ذرة من ذراتهم «غريزة» الثرثرة...

قال لي مرة بأن منزله يغص بآلاف الأفكار التي استلهمها من

تجربته الغنية في الحياة، وبأنّ تلك الأفكار تتزاحم لتأخذ مكانها ضمن سلسلة الإبداعات الساطعة التي سيقوم بها عما قريب...

كان يتحدث عن أحلام جبارة بالسهولة التي يمسك بها الطفل بقطعة حلوى مهداة، وكان يجعل من تحقيقها أمرا لا يتطلب أية مشقة، سيما وعبقريّته لا تنضب كما يقول... وعندما يدور الكلام عن حياتي، فكل الأماني تبدو مستحيلة عدا ذلك المنزل المتواضع وتلك العروس الجميلة، وعلبة الألوان... كان يريدني أن أرسم الأزهار والطيور والفراشات...

أذكر أنني عدت إلى دار الطبيب أكثر من مرة، بدون جدوى.

و ذات يوم، مررت من هناك، ولم يكن في نيتي زيارته، لكن المنزل كان منارا. اقتربت دون تردد ، وأوشكت أن أشرع في الطرق عندما فُتح الباب فجأة وظهر رجل يشبه الطبيب، لكنه أقوى وأطول منه. ولما سألته إن كان الطبيب موجودا بمكتبه، بدت عليه الدهشة ورد علي بصوت لن أنساه أبدا :

- الطبيب مات.

إغتيال

ضوء المصباح منعكس على زجاج النافذة، وبياض الجدار أيضا. عياش يبحث عن شيء مفقود. لعله داخل لوح الزجاج، أو لوح ما. لا، بالطبع، هو لا يتذكر.

لكنه يبحث... نعم، لأجل البحث. هل هو يبحث عن نقطة ما، أو عن جزيرة ما ؟ كان يتصور بأن عيناه أضواء كاشفة وهو يبحث، ويبحث، ويبحث... هل فقد شيئا ؟ هو لا يدري، إنّما يبحث فقط. لعلّه يفعل ذلك لأجل المجرم الذي يتخيله متقوقعا بداخل الجدار الأبيض. قد يكون مجرد نقطة سوداء وضئيلة إلى حد ما. إنه لا يستطيع رؤيتها، ولكنه يتصورها قابعة هناك، على صفحة الحائط، حيث لا تدركها أبصاره.

و ها هو يتصور لها عيونا مجهرية تراقب حركاته، وفما يضحك من تفاهته ! فم يبدو عريضا كفم زرفة وهي تقهقه، وعيون ضئيلة

كعيون الحاجة رهواجة وهي تترقب كل ما يحدث، متأهبة للتدخل في ما لا يعنيها. وربما كانت لها أذنان كأذني إبن عمه المعتوه حمو : ممتدتين نحو الأعلى ومعقوفتين بالأسفل.

النقطة كبرت مساحتها، والمجرم صارت له عضلات. وها هو يتململ في عمق الجدار ! عضلات مفتولة كعضلات أدربال، ذلك الحطاب العتيد الذي أبى أن يستذله رجال الشر وأن ينالوا من شرف إبنته الوحيدة، فقتل منهم ثلاثة وفرّ الرابع و هو يحمل رصاصة في كتفه ويتغوط من الخوف. لا ! الجدار لم يتصدع بعد، لم يفقد بيوضته، وعلى زجاج النافذة ينعكس ضوء المصباح الشاحب. أما عياش، فهو يبحث، يبحث عن ماهية المجرم... ولا يعثر حتى على النقطة السوداء...

هل تغير الوجود ؟ بالطبع لا. فهو مهما كان دائم التفاعل، فلن يتبدل بالنسبة إليه. لن يعبأ فقير مثله بذلك. وحتى ظله لا يرتسم على لوحة الزجاج. إنه منعدم الوجود فقط. هو منعدم الوجود، ولكنه يقرر بأن الوجود لا يتغير مادام هو، ومن هم على شاكلته وفي نفس الظروف تقريبا، غير موجودين... غير كائنين... وحتى المجرم، قد لا يوجد هنا في سمك الجدار... ولا النقطة السوداء... ولا النافذة...

ضوء المصباح منعكس على زجاج النافذة، وبياض الجدار أيضا. عياش يبحث... عياش لا يتذكر... عياش... النطقة السوداء... عياش... المجرم... عياش... جزيرة تغرق... عياش...

الكابوس الاجتماعي الذي ألف العيش وسط مخاوفه صار لا يهمه. لا تهمه حياة من حوله بقدر ما يهمه البحث. الحاجة رهواجة تتفيأ تحت ظلال الماضي... لكن هذا لا يهمه... فهي كل الماضي، ومع ذلك، فهي تغرس أنظارها في الحاضر، تتشبث به، تتمسك بكل خيط من خيوطه. إنها تتخيل لو تغلق عينيها للحظة تموت، وينطفئ كل شيء، ينسكب نورهما على الأرض ويتلوث بالتراب.

إن زوجة ابنها زرفة تلقبها بالعنكبوت ؛ وحمّو المجنون يتهمها بالكذب ويتفل في وجهها بدون حياء، لكنها لا تسدل جفنيها على مقلتيها المحوتين. إنما تمسحهما بهدوء، ثم ينبعث صوتها الأجش من أغوار بطنها المتجعد والملتوي كمتاهة أسطورية :

«الله يعطيك بلاء أكثر من الجنون ! »

لا يهم. زرفة ترصف أسنانها في مخيلتها، تنفخ في شعرها رونقا لم تعرفه أبدا، تستبدل سواد عينيها بزرقة البحر. لكنها حين تنظر في المرآة تنهار، وينهار العالم من حولها...

لا ! زرفة لم تبلغ الثامنة والأربعين بعد. مستحيل ! لو كان زوجها المرحوم هنا (و كيف ؟!) لأكّد لها ذلك.

لا ! زرفة تقهقه في وجه الزمن... زرفة ترصف أسنانها في المرآة. وهي إذ تغلق رموشها، إنّما تتحاشى أن تكذب عليها صورتها هناك...

و حمّو ؟ من يدري إن كان حقا معتوها كما يدّعون ؟ صحيح أنه كان في يوم من الأيام يتعاطى المخدرات ومعاقرة الخمر، لكنه شفي منها تماما أو يكاد واستمر في الشغل لمدة سنوات بانتظام. أحبّ فتاة وأحبته. تزوجت هي ثم طلّقها زوجها، و تزوج هو ثم توفيت زوجته. عادت إلي المدينة التى عرفا فيها طعم الحبّ والفراق، وانقطع هو عن عمله، واعتكف الحيّ. لقد صار فجأة عنيفا وغامضا في تصرفاته.. ولكن، هل يكفي هذا لاتهامه بالجنون ؟ صحيح أنّه يتحدث لوحده، ويخاطب أشخاصا غير مرئيين، وأحيانا يلتهم أعقاب السجائر، كما يزيح الحجارة وهشيم الزجاج كلما اعترضت طريقه ويرمي بها بعيدا. ولكن، ليس من السهل أن نتهم إنسانا بالجنون !

لا شك أن أباه أَحْمَنّا يتأسف كثيرا لحالته تلك، ولكنه لا يعتبرها خبلا، أم لعلّه هو الآخر يعيش دوامة الجنون ؟! ما الذي دفع به إلى المغامرة بشبابه وصحته لأجلهم جميعا ؟ لأجل أمّه العجوز رهواجة، وزرفة زوجة أخيه قاسا، لأجله هو، عيّاش، ابن أخيه أعبلّا، ولأجل إبنه حمّو، الذي كان قد فرح بزواجه، ثم ما لبث أن تملكه نوع من اليأس. لا ! إنّه لا يشرب خمرا ولكنه دائم السكر، ودائم الحزن. لقد أضحى وجهه كلوحة مسمارية، وتهدلت عضلاته لكثرة ما انحنى كي يرفع عبئه الثقيل، بكل صبر وبدون مساومة أو تهاون. إنّ شعره الخشبي وجسمه الميّت يشهدان على ذلك. كم من السنين قضاها في منجم الفحم ذاك، وببلد كان

بالأمس القريب يمتص دماء ذوي العزّة من شعبه ؟ هي ذي سنين الفحم حقا !...

ضوء المصباح منعكس على زجاج النافذة، وبياض الجدار أيضا. النقطة السوداء خنجر في الحائط... النقطة السوداء يد حديدية تمسك خنجرا... الحائط يتململ بسكون... النقطة السوداء مجرم، مجرم يركض بداخل الجدران... النقطة السوداء... جزيرة تنهار في المحيط.

عياش لا يجرؤ على الذهاب أبعد من ذلك، فلوح الزجاج عائق لتخيلاته. هناك حصان يقهقه في الظلام، لا، بل في المرآة ! من يدري؟ قد تكون زرفة ! وقد لا تكون في الثامنة والأربعين، كما يقال هنا وهناك. شعرها كان رائعا، وعيونها بعمق الليل.

لا ! زرفة مازالت جميلة ! لو كان قاسا حيّا لأثبت لها ذلك في نظرية كاملة. كان شغفه بها يزداد باستمرار إلى أن غاصت به باخرة الجحيم.

– لا ! لا يحق للمرآة أن تكذب عليها !

الحاجة رهواجة تكذب، ولكن هذا لا يؤثر عليها البتة. الحاجة تعرف كيف تتسلل بين الظفر واللحم وكيف تتدخل في كل أمر، غير أنّ زرفة لا تعيرها أيّ انتباه، تتجاهلها تماما. ولكن الحاجة رهواجة عنيدة، رغم كونها أقرب إلى الظل منها إلى الوجود الحق. بصيص النور يكاد يموت في عينيها، لكنها تريد أن تشاهد كل شيء وبكل وضوح... كل شيء وبكل وضوح... ثم ماذا ؟ هل

يتحتم أن تموت الآن ؟ هل يجب أن تقضي نحبها لأنها عجوز ؟ لا ! لا ينغي أن نعامل العجائز كما لو كانت أشياء قديمة حان وقت التخلص منها ! لا يجوز أن نترك عجوزا في آخر العمر مثلها تسافر وحيدة في الظلام وإلى غير رجعة. إنّ هذا لأمر فظيع !

وحمّو، حفيدها المخبول، لماذا يعاملها بمثل تلك القسوة ؟ لماذا يبصق في وجهها ؟ هي لا تدري لماذا يفعل ذلك، لكنها تصرخ في وجهه بصوتها الحجري :

– الله يسلط عليك العمى والتابعة والعياذ بالله !

إنّ حمّو يقوم بذلك تلقائيا وكأنّه يلقي عليها التحية فحسب، ثم يفضي إلى الخارج في قفزة عملاق، ليمسك بتلاليب أحد المارّة ويلقي به جانبا. عياش يرجح بأنه يتصرف بتلك الطريقة لأنّه يريد قول شيء لا يستطيع قوله، وما هروبه من وجه جدّته إلّا لكونه يفهم ما تتفوه به من شتم لاذع ودعاء مرير.

لا يهم. حمّو كان متيما بحبّ فتاة ما. لكن جدّته وقفت في وجهه كالبرزخ. قالت لأبيه قبل عودته إلى المهجر.

– هذه البنت لا تصلح لإبنك. إن زوّجته إيّاها خرجت من هذه الدّار إلى الأبد. قالت له ذلك بكل إصرار وتعنّت، ثم راحت تسرد عليه سلسلة من الأحاديث والأقاويل التي نقلتهاعن أشخاص موثوق بهم، والتي تسيء إلى سمعة الفتاة وعائلتها أشدّ الإساءة. ثم كان ما كان...

عادت الفتاة بعد زواجها من رجل آخر : مطلقة. وانتصرت العجوز... أمّا حمّو فقد دخل عالما جديدا ، ابتدعه لنفسه، يحميه من هجمات الواقع المرفوض.

ضوء المصباح منعكس على زجاج النافذة، وبياض الجدار أيضا. عياش يبحث.... بالطبع، هو لا يبحث عن شيء محدد. هناك صور تتجاذب مخيلته. جزيرة عظمى... جزيرة شاسعة وخضراء، تنزل ببطء في المياه... وهناك شخص يهرول ! آه ! كم يتمنى أن يعرف كلّ ما وقع بالضبط. يخيّل إليه أنّه فقد كلّ شيء، رغم أنّه لم يضيع شيئا مما يملك من متاع الدنيا. فقد تلك الجزيرة «البوهيمية» التي يعتقد البعض أنها صعدت إلى السماء بعد أن تحولت إلى سفينة فضائية. هو لا يشك أن هذه الصورة التي تبدو نابعة من علم الخيال والسينما لا تخلو من حقيقة وهي : أنّ الجزيرة في ماضيها العريق كانت في اتصال مع السماء، مع النجوم، مع البعد الآخر... ولعلّ هذا هو السبب في اختفائها... ولكن، لماذا تطغى عليه تلك الصورة التراجيدية ؟ إنّ الجزيرة تغوص أمامه مائة مرة كل ليلة، بين جبال من الأمواج الداكنة المتطاحنة. أمام ناظريه تنهار الجنة بكل ما فيها من عظمة وسحر وجمال في قاع الجحيم. وها هو يغلق أجفانه محاولا قطع الصلة مع تلك الصورة الفظيعة دون جدوى. إنّها تغوص، تغوص بكل ما فيها من أسرار بديعة عجيبة...

ماذا ؟ الجدران تتحرك... تتحرك ببطء... هناك شخص يمشي بداخلها ! ما الذي يلمع بيده ؟

لا ! ليس هناك نقطة سوداء ! البياض ناصع هنا... فقط هو أقل لمعانا من الزجاج... ولكن... لا ! ليس هناك نقطة سوداء، وإن كان هناك... ماذا ! وما دخل الغموض هنا ؟ هناك خنجر، وهناك يد من حديد... وجزيرة كعذراء خالدة تهوي في البحر... تغتال...

إنّ لعياش أضواء كاشفة بدل العينين، وهو يبحث و يبحث... يكاد يخترق الجدار ولكن... خيّل إليه أنّ الشخص قد مرق في رمشة عين من القائم الأيسر للنافذة إلى القائم الآخر، ليتوغل في الحائط، تماما كمن يشاهد شخصا يعبر الضباب من بعيد ثم يغيب فجأة في ظلام كثيف. هل كانت له عضلات مارد كتلك التي يزدهي بها جسم أدربال ؟ ذلك الحطّاب الأبيّ الذي كان عائدا من الصيد فوجد رجال السوء يحاولون الإعتداء بشراسة على ابنته ووحيدته : أجمل عذارى الثلوج وعروس الشمس. وكانت النتيجة ثلاثة قتلى وجريح... ثم اعتصم بالجبال والعذراء بجانبه لا تفارقه أبدا... أبدا.

حقّا إنّه لمزيج غريب ! بالله كيف يمكن أن تجتمع مثل هذه الأوصاف والأعضاء في مخلوق واحد ؟ عضلات أدربال الفولاذية، أذني حمّو الشبيهتين بنافذتين قوطيتين، فم زرفة العريض وعيني الجدة الذابلتين.

لا ! عياش يبحث، يبحث عن ماهية المجرم الذي اغتال العذراء... عياش يتبصّر الأمر... عياش يتقصى الحقائق... عياش... عياش لا يتذكر... لكنه يبحث ويبحث... هو لا يعثر على شيء واضح. هناك صورة تتشبث بها ذاته، جزيرة فردوسية تنزلق في المحيط... تغرق بهدوء... تغرق... و هناك شخص من عالم الظل، بيده خنجر... إنّه يركض في سمك الجدران... لا ! لا علاقة له بأدربال...

أهالي القرية نصّبوا أدربال بطلا. وهو يؤكد لهم بأنّ عذراءه لن تتزوج إلّا فارسا مغوارا. إنّه يأبى أن يقرنها بنذل من الأنذال... عياش يحاول تشخيص ما بداخل الإسمنت... هو يتخيله نذلا وغادرا، ولا يدري لماذا يتستر بالجدران ؟ماذا يخفي بيده ؟ لماذا يهرول هكذا : لا يدري ! لماذا يمرق من مكان إلى مكان ؟ هل هو يترصد الفرصة ليطيح بعذراء أدربال ؟ هل هو مغتال الجزيرة ؟ لا يدري... هو لا يتذكر شيئا. إنما يتابع ظلا خلف بياض الجدار وضوء المصباح المنعكس على زجاج النافذة. إنّه يبحث... النقطة السوداء تحول ماردا أسودا، وخلال لحظات تبرز من الحائط في وثبة صعلوك جبّار لتحاصره في زاوية من زوايا الغرفة... وها هو يكاد يختنق... يجب أن يفتح النافذة... ولكن... النافذة مفتوحة، والباب ؟ الباب ! قال في نفسه :

– لا بد أن يمرّ هواء جديد !

ضوء المصباح منعكس على زجاج النافذة، وبياض الجدار أيضا. هل عياش إنسان ؟ بالطبع، هو إنسان، لكنه يكاد يكون منعدم

الوجود... وجود الآخرين ثقيل بهمومه وأوزاره، فهو يميل الأرض ويضغط الهواء... يشحنهما بكهرباء التصادم المستميت والدائم بين الأقلية المالكة والأغلبية الفقيرة، في كل مناطق الدنيا. صحيح أنّ ما يحيط به من أشكال التطاحن والاقتتال يكفي لأن يزرع في نفسه ثائرة الحقد بكلّ ما تحمل من معاني الانتقام والثورة، يكفي لأن يبث في مخيلته كل تلك الصور المبهمة التي يمتزج فيها الواقع – واقعه المنسلخ من روحه والمنعدم في آن واحد – بالخيال، حياته الآنية وماضيه العريق، من الجزيرة الغارقة في البحر إلى عذراء أدربال التي يعشقها كما كان أجداده يعشقون الشمس ويتعبدها كما كانوا يتعبدون القمر... لكنه ليس بفارس مغوار ! إنّه لا يقر بذلك لنفسه. هو يكاد يقنع ذاته بأن عهد الفروسية والفرسان قد انقضى... أسود الغاب انقرضت ! ولكن...

لا ! ليس هناك علاقة بين الشخص القابع في عمق الجدار وأفراد أسرته. حمّو يعيش في عالم لا يقبل دخول الغير. لا يربطه بالواقع (واقعنا نحن...) إلّا جدّته العجوز : إنّ جدلية التفال والهروب هي أسلوبه الوحيد للرد على ما أصابه من ظلم ؛ ثم لا يهمه بعد ذلك إن زلزلت الأرض زلزالها. إنّه يقضي نهاره في الشارع، يزيح كل من يعترض طريقه، ويأكل من حيث شاء، معتمدا الخطف والاستيلاء بالقوة والعنف في بعض الحالات، ثم يمضي لحاله لا يلوي على شيء. وبالليل يأوي إلى المنزل وينام في أي مكان يجده فارغا وبعيدا عن الحاجة رهواجة.

أمّا العجوز، فهي أيضا لا تغفل عنه، إنّها تتحسس المكان بما تبقّى من نور باهت في عينيها وترهف السّمع لتسجّل كل ما يتحرك بالمنزل. هي لم تعد تقوى على الذهاب أبعد من ذلك. لقد امتنعت كلية عن الخروج من الدار. إنّها أشبه ما تكون بتلك العجوز الشمطاء التي تكتظ بها قصص الأطفال، والتي تبدو كسنديانة عتيقة، تهرأت وتعقدت أغصانها وأخذ العث منها مأخذا كبيرا. لكنها مع ذلك تغرس أظافرها في أرض الواقع، تعانق كل صورة من صوره، تمتص منها الدم الذي يغذي طموحاتها الميتة.

ثم ماذا عن إراهاصات زرفة ؟! المرآة صارت عجوزا... هرمت. لذلك ينبغي أن تستبدلها، فهي تعتبر الأمر حتمية لا مناص منها. لا ! بالطبع، هي مازالت في مقتبل العمر. مات فارسها الأول... يا للوعة ! يا للكارثة ! ولكن، هل يتحتم أن تغلق صندوق الأمل وأن تقتل الأحلام التي ما فتئت تداعب خيالها الطافح بالحنين والمتفجر كالبركان. لا ! مستحيل ! إنّ الشمس لتغار من وهج شعرها المبهر، وملايين من النجوم الذهبية والفضية تتراقص على أسنانها المتراصفة في بسمتها الخالدة.

لا ! المحيط يفرّ... يخشى أن تزجّ به في عينيها... وسيأتي فارس آخر... سيأتي... إنّ وقع حوافر حصانه لتدكّ الأرض من بعيد... يبدو أن الحصان يقهقه في الظلام... ولكن الصوت بعيد جدا... بعيد...

لا يهم ! ما دام أحمنّا يكاد يمسخ صنما من فحم. السنوات السود التي قضاها في المنجم لا تعدّ. هو يعيش في باطن الأرض، تماما كالموتى، منذ زهرة شبابه... إنه يحترق هناك في الغربة من أجل أن يضيء ولو حيزا ضئيلا من حياة الأسرة التي ما انفك يتكفّل بها منذ الأبد. إنّه يعتبر ذلك جهادا حقيقيا وهو لا يستبعد أن يكافأ ذات يوم... ذات يوم ! وعلى مرّ السنين، فهو يحلم ويشتغل، يشتغل ويحلم. إنّه في حلّ وترحال دائمين على سفينة الانتظار !

ضوء المصباح منعكس على زجاج النافذة، وبياض الجدار أيضا. عياش يبحث... هل هو يبحث عن الشخص الذي يترهبل وسط إسمنت الحائط ؟ هو متأكد من أن الخنجر الذي يحمله هو سلاح الجريمة، ولكن... لا بد من العثور على الجثة أولا ! يعتقد أن الجزيرة كانت تسافر في الزمن وتعبر أكوانا ومسافات لا حصر لها... ولكنها غرقت وغرقت معها حضارة أطلنطا... إندثرت تحت المياه... هناك في الأعماق... حيث يسكن منزلا بحريا ويحلم بالنجوم. منزلا ليس كمنازل الآخرين... وعذراء الثلوج، لماذا تهوي في البحر ؟ هل هي تنتحر ؟ لا ! هناك خنجر... وهناك يد من حديد... ليس هناك نقطة سوداء، فالجدار لم يفقد بياضه بعد، ولكنه يتصدّع ! يا للهول ! إنّه يتصدع بمرأى من العيون. هي ذي المياه تتدفق إلى الداخل... لا ! عياش لا يتقن السباحة... إنه يكاد يختنق... حتما هو سيغرق... سيغرق... سيغرق...

عودة دينا

بحث عنها طويلا، ولما يئس من العثور عليها، عاد إلى القرية مهرولا، وفي رأسه نار متأججة...

الشيخ بالا الذي يجلس في منعطف الطريق، على تلة صغيرة، ويحرس مدخل القرية ككلب أمين، وهو يحتسي شايه الأبدي، لاحظ في هيئته تغيّرا بالغا وهو يتقدم نحوه. ليس من عادة قاقا أن يمشي عاري الرأس : هو لا يفارق شاشه الأصفر أبدا.

ولكن ما أثار اهتمامه أكثر، هو عودته بدون القطيع... قال في نفسه : «لا شك أن أمرا غريبا قد حدث !» وراح يراقب راعي القرية وهو يقترب منه.

بادره قاقا قائلا وهو يلهث :

– مئات من... الفرسان الأ...شداء... وعلى رأسهم...

– ماذا ؟

- امرأة في الأربعين... أو أكثر...
- ماذا تقول ؟ عن ماذا تتكلم ؟

وواصل قاقا طريقه وهو يردد :

- مئات من الفرسان... الأشداء...

قال الشيخ بالا :

- ها قد جنّ ! كنت أتوقع الأمر. بالله لمن تحدثت عن ذلك ؟

راح يحك رأسه، بعث في فيه جرعة شاي، وهو يدير عينيه كمن يحاول أن يسترجع إلى ذهنه شيئا معينا، أفقده إياه النسيان. ثم ما لبث أن أدرك بأنه يتعب نفسه فقط في البحث عن لا شيء، كونه لم يتوقع ذلك أبدا ولم يحدث أن فكر به دقيقة واحدة. فقاقا، شاب عاقل وبسيط، ولا يخطر ببال أحد بأنه سيجن يوما ما. عاد إلى إبريق الشاي، وأشعل لفافة تبغ... بينما واصل قاقا طريقه إلى قلب القرية، حيث يقبع السوق، وهو يصيح :

- لقد عادوا، عادوامن جديد !

و ما أن وطئ أرض السوق حتى دبت البلبلة في أرجائه. وإذا بأهل القرية ملتفون به...

- من هم الذين عادوا ؟
- الفرسان... الفرسان الأشداء.
- من أين عادوا ؟
- لست أدري... ربما من الجبال !
- من الجبال...

- أية فرسان تقصد ؟
- لست أدري.
- إنه يهذي...
- قد تكون بعض الذئاب التي أفزعته...

واحتج قاقا :

- لا، ليسوا ذئابا. إنهم فرسان، فرسان حقيقيون !
- فرسان ؟!
- مئات من الفرسان المدججين بالسلاح...
- أين ؟
- كانوا يعبرون النهر، وسط الغابة...
- وماذا كنت تفعل في الغابة ؟
- لقد تبعتهم... كنت أريد رؤيتها عن قرب...
- رؤية من ؟
- قائدتهم... أو لعلها ملكتهم !
- ماذا ؟
- كانت تركب حصانا أبيضا، وتتقدمهم وهي تشهر سيفها...
- عجيب !
- ثم غابت بين أشجار الأرز، أليس كذلك ؟ سأل أحدهم متهكما.
- نعم غابت تماما...

– والفرسان ؟

– وحتى الفرسان غابوا... لم أعثر لهم على أثر... و كأنهم تبخروا في الفضاء. وتدخل أحد الشيوخ :

– لقد حدث هذا لجدي أيضا، كما يحكي ! ولكن، أين القطيع ؟

– أين ترك القطيع ؟

وتذكر قاقا فجأة بأنه نسي خرفانه تماما.

– سأذهب لأعود بها.

وفي تلك اللحظة اقترب منهم مزعاش الصياد :

– لا داعي لذلك... لقد عدت بالقطيع بنفسي، بعد أن فشلت في الصيد... رأيتك تهرول، وناديتك ولكنك لم تسمع...

– كنت أسرع...

وقاطعه مزعاش :

– لتخبر الناس، فهمت ذلك... ولكن، قل لي، ماذا رأيت ؟

– هل كانوا فرسانا ؟

ونظر إليه أهل القرية مشدوهين.

– نعم، مئات من الفرسان، وعلى رأسهم امرأة !

– كنت أريد أن أشاهد بعيني، لولا أن كلبي دخل في حالة مزعجة وهز الغابة بنباحه، لكأنه أصيب بالجنون... فلبثت في مكاني، لا أجرؤ على الحركة.

– عجيب !

وأحاط أهل القرية بقاقا من جديد.

– قل ماذا رأيت ؟

– بعد إغفاءة قصيرة، عند القيلولة، على جذع شجرة الرياح، لاحظت بأن نعجة قد ابتعدت كثيرا عن القطيع، ناحية الغابة، فرحت ألاحقها، لكنها دخلت بين الأشجار، نازلة نحو النهر. فتبعتها، وكدت أمسك بها، لولا أنها ولّت الأدبار فجأة، وكأنها مذعورة، وفي تلك اللحظة، سمعت وقع حوافر الخيل وهي تدك الأرض...

– وذاك ما سمعته أنا، قال الصياد.

– ورأيت...

– ماذا رأيت ؟

– ماذا ؟

– رأيت امرأة تعتلي صهوة جواد أبيض، توقف بحركة واحدة من يدها زحف المئات من الفرسان، وتخوض في النهر بفرسها إلى أن تقف في وسطه، ثم بحركة أخرى، تأمر فرسانها بالتقدم، فيتقدمون كالسيل الداهم، يشقون المياه شقا... رأيتهم يخرجون إلى الضفة الأخرى، ويتوغلون في الغابة. لست أدري مالذي دفعني للحاق بهم ! نزلت إلى الجسر وعبرته، ثم قطعت ناحية الشعاب، وهناك، سمعت وقع حوافر الخيل من جديد، ورأيتها... رأيتها وهي تتجه بجيشها ناحية الجنوب... حاولت أن أقترب أكثر... ولكنهم تبددوا وسط أشجار الأرز وكأنهم لم يكونوا هناك منذ قليل...

- أشباح !

- فكرت بذلك، ودب الرعب في مفاصلي، لكن ذلك لم يثبط عزيمتي، بحثت عنها... كنت أريد مشاهدة وجهها عن قرب...

- هل كانت جميلة ؟

- هي تبدو كذلك...

- فقط ؟ سأل الصياد، ألم تسمع شيئا ؟ ألم يكونوا يصرخون ؟!

- أجل ! سمعتهم يهتفون، عند عبورهم للنهر، باسم دينا...

- دينا ؟

- نعم، دينا. كرروه ثانية وثالثة ورابعة... أنا متأكد...

- عجيب !

- ولماذا يتجهون نحو الجنوب ؟

- لست أدري.

- لعلهم يقومون بغزوة !

- غزوة الأشباح !

- اسخروا مني ما شئتم ! أما أنا فسأبحث عنها !

قال ذلك، واتجه نحو المقهى. ولحق به الصياد ونفر من الشباب.

- من تكون دينا هاته ؟ نحن لا نعرف عنها شيئا.

- ولا أنا، إنني أجهل من تكون... لكنها تبدو عظيمة، فهي كالفارس الذي لا يشق له غبار في امتطاء صهوة الجواد... ثم إنّ سيفها يلمع في وهج الشمس، لكأنه من نار... تبدو... تبدو

وكأنها ملكة !

– ملكة ؟...

– ملكة من ؟

– لست أدري... مئات من الفرسان يأتمرون بأمرها وكأنهم رجل واحد. إن بإمكانها الاستيلاء على عاصمة في ظرف ساعة...

– ليس في عصرنا هذا.

سمعوا جلبة في تلك الآونة، فكفوا عن الحديث ونظروا إلى بعضهم البعض. كانت الريح تدغدغ أغصان الأرز، وروح الغابة يسري حولهم. وهدأت الجلبة فجأة، وبدت على وجوههم ملامح الخيبة. لا ! َ ليس هذا ما كانوا ينتظرون !

– بعض الحيوانات، قال أحدهم.

و أكّد آخر :

– من دون شك !

– هل تظن بأنهم سيمرّون من هنا مرة أخرى ؟

– لست أدري... عندي إحساس ما بأنّ شيئا سيحدث.

– ونفس الإحساس عندي أيضا، تدخل الصياد، ولكن، أين هو كلبي ؟

أخذ يصفر في كل الاتجاهات، وينادي ولكن دون جدوى.

– سأبحث عنه وأعود، قال ذلك، وبادر بالنزول باتجاه النهر.

– أما أنا فسأعود للقرية، قال أحد الشبان الأربعة الذين

رافقوا قاقا إلى الغابة، للتأكد بأنفسهم من أقواله، هذا المكان مسحور !

– هل مسخت إلى ضفدع أو شجرة ؟ ردّ الشاب الثاني.

– ولماذا يفر كلب مزعاش إذن ؟ قلبي يحدثني بأن الخطر محدق بنا في هذا المكان.

– إذا كنت تريد الانصراف، فلا داعي لأن تقلقنا بمخاوفك ! لقد جئنا هنا لكي نشاهد عيانا هذه المعجزة، ولدينا الصبر الكافي للانتظار.

– انتظروا ما شئتم، أما أنا فقد قررت العودة. قال ذلك، واستدار ميمما شطر القرية، دونما التفاتة واحدة.

– عجيب ! قال الشاب المرح، المدعو ثغاوس (الشيء).

– وأعجب من ذلك الخوف عند أهل القرية...

– الشيء الذي جعلها تبقى مدفونة هناك...

– وحيّة ! ها ! ها ! ها !

– اصمت... لا يجب أن تقهقه هكذا ! قد تفوّت علينا الفرصة.

وصمتوا مدة من الزمن، لكن نظراتهم بقيت تطارد ظلال القرية، وتترقب أدنى حركة.

– ها هو مزعاش يعود، بدون الكلب ! قال قاقا.

– ولكن لماذا يتوقف ؟

– إنه يلوح لنا بيده، وكأنه يريد أن يقول لنا شيئا.

– ها هو يواصل طريقه ! أرأيت ؟ قال الشاب الأول.

- إنه يتجه نحو القرية، أضاف الثاني.

وقال الشاب المرح :

- سيستقبله الشيخ بالا !
- ولكن لماذا ؟ لماذا يعود للقرية ؟
- الخوف يا صديقي... الخوف !
- أتظن ذلك ؟
- مزعاش إنسان شجاع، فهو يقضي جل وقته في الغابة.
- صحيح، ولكن ليس إلى الحد الذي تتصوره.
- دعونا من الكلام... يجب أن نصغي لما يحيط بنا.

وصمتوا. راحوا يسترقون السمع لأصوات الغابة الغنية بألوانها، ومن حين إلى حين، كان ينفذ إلى آذانهم نقيق الضفادع الطالع من أعماق النهر. وهناك نحو الأعالي، كان شجر الأرز الشامخ يتحدى الفضاء والريح معا. أما الطيور فكانت تغني للأصيل، وترقص في السماء... فرحة بالوجود !

أشعل ثغاوس سيجارة، واستلقى على ظهره، بينما ثبت الآخرون في أماكنهم، كانت نظراتهم تتفحص الغابة التي بدأت تتكاثف بها الظلال. وفجأة سمعوا صراخا قويا. كان صراخ كلب يعوي وكأنه أصيب بحجر مدقق إلى أم رأسه. وما هي إلا لحظة و شاهدوه عائدا من ناحية النهر مهرولا باتجاه القرية، وهو يمزق الهدوء النسبي لذلك المكان بنباحه الجنوني، متبعا نفس الطريق الذي مرّ به مزعاش، منذ أكثر من ساعة.

– عجيب ! قال ثغاوس... يبدو أن المفتاح في أسفل النهر... ليس هنا على هذه القمّة.

– أي مفتاح ؟ قال الشاب الأول.

– مفتاح اللعبة ! رد عليه الشاب الثاني.

ثم نظروا إلى بعضهم بعضا نظرات استفسار. قال قاقا :

– إن أردتم أن ننزل إلى النهر نزلنا، ولكنني أؤكد لكم أنهم مروا من هنا ثم هبطوا ذلك المنحدر... ومن هنا، يمكننا الوصول قبلهم إلى أسفل النهر.

– ماذا قلتم ؟ قال الشاب الثاني... أنصتوا... إنني أسمع شيئا.

وأرهفوا السمع... صوت حوافر الخيل كان قادما من بعيد... سمعه كل واحد منهم بوضوح وقال قاقا :

– لنختبئ جيدا بين الأغصان !

عادوا إلى القرية لاهثين. لقد بحثوا عنها حتى دب الوهن في مفاصلهم. بحثوا عن فرسانها طويلا ولم يعثروا إلّا على الريح تصفّر في الفجاج وبين الأشجار... عادوا بخفي حنين، وفي عقولهم شعلة من نار...

الشيخ بالا الذي لم ينجح في تهدئة مزعاش بعد العصر، ثم كلبه الذي تمنّى لو يأخذه الجحيم، تحيّر لأمر تلك الجماعة التي كانت تتسلق الطريق نحوه. لقد جلس هنا بعد العشاء يشرب الشاي ويراقب النجوم والدروب. إنه منفصل إلى حد ما عن

القرية، فهو لا ينزل إليها إلّا مرة كل أسبوعين أو ثلاثة. هو يسأل الداخل والخارج... لم يفهم من مزعاش الشيء الكثير... ولا من كلبه الذي مرّ أمامه كالصاعقة. كل ما تردد بذهنه هو أن القرية تعيش أمورا غريبة.

و لما شاهد الشبان الأربعة يتقدمون باتجاهه، خيل إليه أنهم أشباح، ثم غرباء، فهو لم يرهم حين مروا من هنا، في الصباح الباكر. قال في نفسه :

– من هنا فصاعدا، يجب أن يكون المسدس رهن يدي.

و لما اقتربوا منه وتعرف على هيئة قاقا، استوقفه قائلا :

– توقعت مرورك من هنا... قل لي مالذي حدث لكم ؟

– أمر عجيب ! ردّ عليه ثغاوس وهو يلهث.

و قال الشاب الأول :

– لنواصل السير !

لكن الشيخ بالا قفز من مكانه معترضا طريقهم :

– يبدوا أنكم جد متعبين. خذوا قسطا من الراحة مع قليل من الشاي ! ليس هناك مانع ؟ فالقرية لن تفر !

– لكنها سترحل ! قال ثغاوس، وهو يرنو إلى صينية الشاي على التلة الصغيرة.

– ترحل ؟ أين ؟

– صحيح. لم لا نرتاح قليلا، ثم نواصل بعد ذلك، قال الشاب الثاني.

وجلسوا... وما أن سمعهم الشيخ يتحدثون بحماس حتى باشر بالذهاب إلى المنزل، على نحو ثلاثين مترا. وعاد بإبريق ذو حجم أكبر وأربعة كؤوس، وبادر قاقا قائلا :

– ألم أقل لك أنني كنت أتوقع مرورك من هذا المكان ليلا ! لقد أمرت زوجتي بريكه بتحضير المزيد من الشاي، منذ المساء.

– ومزعاش ؟ سأل الشاب الثاني.

– مزعاش ! لقد رأيته عند العصر يهرول كالمعتوه... لم يقبل حتى كوب الشاي الذي عرضته عليه... كان يتلعثم في حديثه... أظن أنه السحر. نعم ! كان كالمسحور. ملأ كؤوسهم من الإبريق وهو يتفرس وجوههم، ثم أردف متسائلا :

– لماذا تنظرون إلى بعضكم البعض ؟ قولوا ! مالذي وقع ؟ حدّق بعينَيْ قاقا.

– أشياء مدهشة، لن تصدِّق ذلك ! قال الشاب الأول.

– ولماذا لا أصدّق ؟!

– آلاف من الفرسان... بدأ الشاب الثاني. لكن الشيخ قاطعه :

– ماذا ؟ البارحة فقط عدت يا قاقا، وأنت تتحدث عن المئات من الفرسان، وهاهي تصير آلافا...

– قلت لك لن تصدق. رد عليه الشاب الثاني.

و تدخل ثغاوس :

– دعنا نشرب الشاي ونقص عليك الحدث، ثم فكِّر ما تشاء.

– وإن لم تقتنع، تعال معنا غدا إلى الغابة. أضاف الشاب الأول.

وأشعل ثغاوس سيجارة، ثم راح يسرد على الشيخ بإيجاز ما رأوه هناك في الجبل، وفي النهر وخلفه، وكيف تبخّر الفرسان في الغابة وكأن كل ما وقع كان مجرد حلم. لكن الشيخ بالا لم يصدّق حرفا واحدا من حكايتهم، وسرعان ما غير مجرى الحديث وأخذ يقص عليهم كيف عثرت العساكر الفرنسية على مسدس في غرفته، وكيف اقتادوه إلى السجن. وكان لا بد وأن يستشهد بجملته المفضلة في مقام كهذا، فألقى بها كما يلقي السحرة بعصيّهم.

– قلت لهم، إن أبي كان يصطاد به الخنازير.

وغرق في القهقهة. اغتنم الشباب الأربعة تلك الفرصة لمغادرته... وأسرعوا باتجاه الأنوار المنبعثة من ديار القرية.

مرت الساعات ولم يحدث شيء... وها هي الشمس تأذن بالمغيب. بدأ صبر العشرات من أهالي القرية ينفد شيئا فشيئا. كانوا يقبعون وراء الصخور والأشجار، جماعات جماعات، وكأنهم يستعدون لكمين هائل. أصوات الغابة اللامتناهية ونقيق الضفادع المستمر كان يبعث في أنفسهم مزيجا من الخيبة والغيظ اللّذين زادهما الجوع حدّة... لا ! لا شيء يحدث... كانوا على وشك العودة. البعض كانوا يتأملون غروب الشمس، والقلق باد على محياهم.

- لماذا لا نرجع إلى ديارنا ؟ قال أحدهم.
- ماذا ؟ استفسر آخر.
-هؤلاء يكذبون ! قال ثالث.
- ها هو الشيخ بالا في الأسفل ! قال رابع.
- الشيخ بالا ؟!...
- ماذا يفعل هنا ؟
- أشت ! (Chut).

ونزل إليه أحد الشبان بسرعة وما كاد يدركه حتى ولّى راجعا وهو يصرخ :

- النار في القرية... اشتعلت النار ! اشتعلت النار في القرية !

أسرع الأهالي نحو القرية، وهم لا يلوون على شيء، وما هي إلا ساعة وبعض الساعة حتى دخلوها. لم تكن النيران تلتهم إلا جانبا من ضيعة أثرى السكان، وهو السيّد عباس باي، الذي جنّد لإخمادها ما تبقى في الناحية من رجال. و التحم الجميع حول الألسنة الحمراء وراحوا يقذفونها بدلاء الماء من كل زاوية حتى انطفأت تماما.

- كيف اشتعلت النار هنا ؟ سأل أحدهم.

كان الجواب سلبيا، إذ لا أحد يعرف كيف وقع ما وقع، ومن المسبّب. أضف إلى ذلك، الخبر الذي انتشر بسرعة بين الناس عن سرقة محل تجاري بوسط القرية. و اتجهت أصابع الاتهام نحو قاقا وأصحابه الثلاثة.

– ما عقاب الذي يهزأ بنظام القرية وبأهاليها ؟ قال السّي عبد الله، أحد الشيوخ الأجلاء في ذلك المكان.

– وما عقاب السارق لبني عشيرته ؟ قال الحاج أحمد صاحب المحل المسروق.

– وما عقاب الحاسد، الذي يخرب ويحرق ويدمر ؟ أضاف السّي عباس باي.

وفي كل مرة كان الجمع يردد :

– الطرد... قطع اليد... السجن... الطرد...

ما أن سمع قاقا وأصدقاءه تلك العبارات المشحنة بالغضب حتى انسلوا من القرية دون أن يشعر بهم أحد، واتجهوا نحو الغابة. ومنذ ذلك الحين لم يعثر لهم على أثر.

عاد إلى القرية وفي رأسه تتراقص أمواج النار دون هوادة. لقد بحث عنها طويلا. وعن فرسانها المشهرين سيوفهم وكأنهم ينطلقون لحملة. رآهم يتجهون إلى الجنوب عند أسفل النهر، ولكنّهم اندثروا تماما بعد لحظات، وغابوا عن الأبصار... تبدّد صوت حوافر الخيل فجأة كما بدأ. تبددت أصواتهم وهم يهتفون بها : دينا ! دينا !

الشيخ بالا الذي فعلت به الأيام ما فعلت، ما فتئ متشبثا بتلته تلك، لا يفارقها طوال النهار وجزءا من الليل. لقد فقد المرونة التي كان يعترض بها سبيل المارة ليستقي منهم الأخبار

التي كان يسردها بعد ذلك على زوجته بريكه بطريقة خاصة.

إنه يسمع خطوات الشخص تقترب مهرولة، لكنه لا يراه جيدا. طرأ الذبول على عينيه ودب الهرم في خلايا جسمه ثم إنه صار يعاني من أمراض متعددة. واقترب الشخص أكثر...

- إنني أعرف هذا الوجه... أجل، هو بوحا... إنه راعي القرية... و لكن... !

- أين تركت القطيع ؟ بادره سائلا.

و رد عليه بوحا وهو يلهث :

مئات... من الفرسان... وعلى رأسهم...

- ماذا ؟ ماذا تقول ؟

- امرأة في الأربعين... أو أكثر...

- أنت تهذي ! لا تعد مثل هذا الكلام... وإلّا...

و واصل بوحا طريقه، ذاهل العينين، وهو يردد :

- دينا ! دينا !... مئات من الفرسان...

العدم المشخص

إسمي أمزيان من عائلة تدعى آيث توڤر وتقيم بالمدينة وسط جبال الأوراس الشامخة منذ أزمنة لا تذكر ولا أظن أحدا يستطيع أن يتذكّرها الآن، أو أن يحدد لنا - ولو بصفة التقريب - عهدا معينا ترسخ فيه أجدادنا بهذا الوطن الخالد والذي هو جزء لا يتجزأ من بلد الجزائر ومن بلدان المغرب الكبير ككل.

عندما أتساءل لماذا أطلق على هذه البلدان اسم المغرب تأخذني الحيرة. المغرب بالنسبة للمشرق، رغم أن الشمس دائمة الإشراق والأرض دائمة الدوران... مؤكد أننا ندور !

إنّ معظم تساؤلاتي تاريخية... لأنني أبو التاريخ الحديث... المسيح الحقيقي ! وها قد بعثت من جديد. طبعا، هناك تناقض في رأيكم، رغم استحالة التناقض في رسالتي المقدسة، لأنني حقا عيسى المسيح. قليل جدا من الناس يصدقونني الآن، ولكن

أكثرهم يكذبون، يحتارون في أمري، فأنا من عائلة معيَّنة، آيث توڤر، تسكن المدينة ويعرفها الكثير من الأهالي.

ثم من لا يعرف أمزيان من زبائن مقهى إمدغاسن الدائمين، والذين يتحولون من حين لآخر إلى زبائن الحانة الوحيدة بالمدينة، أين كانت تستقبلهم دائما نفس الوجوه وبنفس الطريقة.

في الحقيقة، أنا لست دائما بطالب لذّة على هذه الأرض، فالخلود بانتظاري... والإلهة التي عشقتني... إلهتي الحبيبة !

لا ! لست أذهب للحانة مع بعض الأصدقاء لمحو ذاكرتي... ذاكرة نبي ورسول. لا أريد الابتعاد عن الواقع وتناسي الحقيقة، حقيقة وجودي، رغم كوني في الأصل عدم... لأن الإلهة اختارت أن يكون سيّدها هو العدم المشخص... لا ! عفوا، كنت أريد أن أقول حبيبها... اختارتني أنا، و أغلقت جسدي على العدم، فالعدم أنا، وأنا وحدي العدم.

أما أنتم فوجود. ستتهمونني بالتناقض إن قلت لكم بأنكم أصدقاء وجود فحسب.

لا ! لن أكذب عليك يا صديقي... فالأنبياء لا يكذبون. إنني لا أتذكر شيئا عن حياتي الماضية، لا كيف أحييت لا زاريوس ولا كيف أشفيت المرضى ولا كيف صعدت إلى السماء. ثم إنني أؤمن بالرسالة المحمدية التي أمرت بإصلاح بعض جوانبها. لكن الناس لا يؤمنون، لا يصدقون بأنّ النار قد محيت من سجل

الوجود... لا يفهمون بأنّ الإلهة حبٌّ لا غير، بأنّ الحياة كلها للحب.

بعضهم يضحك في وجهي بكل وضوح :

– هه ! أمزيان عيسى، أو المسيح أمزيان !

إن عقولهم الصغيرة غير قادرة على تجاوز الأفق إلى ما هو أبعد وأعمق. لا يمكنهم الفصل بين شخصيّتي الواقعية وشخصيّتي الحقيقية. قد ترد عليّ بقولك ما الفرق بين هاتين الحالتين. أنا أفهمك جيدا، لكن سأتطرق لهذا الموضوع في ما بعد، أريد أن أواصل الحديث... !

لا أحد يصدق منكم بأنّ أمزيان آيث توڤر، نسبة إلى أحد جبال الأوراس الشهيرة، هو ابن مريم البتول، الذي بعث منذ ما يقرب من ألفي سنة. الناس ينتظرون شخصا عجيبا ،كلّ حسب نزواته وحسب الوصفة التي يتقبلها مخّه أو مزاجه، أو حسب الصورة التي تكوّنت لديه عن المسيح. كأنّ الإلهة ستبعث إليهم بستة ملايير من نسخي وتضفي على كل نسخة منها كلّ ما من شأنه أن يقنع البشر بوجودي أو بعودتي إلى الأرض... الناس هكذا، الشيطان يلعب بأوتار قلوبهم ويفرغ فيهم سموم الشك والتخالف و العصيان. ولكن، ليس من حرج عليكم... كلكم إلى الجنة ذاهبون... لقد جئت لأزفّ لكم بهذه البشرى السعيدة، بشرى الخلود في الجنة، لتتيقّنوا من أن الإلهة حبّ، حبّ لا غير.

قبل سنوات فقط، كنت أجهل شخصيتي الحقيقية. كنت أظنّ كبعض أصدقائي بأنّ المسيح لن يعود مطلقا. كدت أصير شيوعيا بحتا... تخيلوا مقالة صحفية في جريدة الشعب أو المجاهد تحت عنوان : «عيسى المسيح شيوعي». أمر مدهش، أليس كذلك ؟!

نعم، كنت أجهل تمام الجهل من أكون وماهي حقيقة وجودي، وكنت أعتقد أني كسائر البشر، أمزيان آيث توڤر، شاب جزائري يدرس الرياضيات وينوي الحصول على شهادة الدكتوراه. نعم، كنت أطمح لذلك. لقد تابعت دراستي الثانوية بجد واهتمام بمدينة آبائي وأجدادي، ثم انتقلت إلى جامعة قسنطينة سنة ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين لأدرس العلوم الدقيقة بها لمدة ثلاث سنوات... سنوات حلوة. لو كنت مثل كل الناس، لاعتبرتها أحسن ذكريات حياتي.

كنت أتردّد بانتظام على معهد الموسيقى، حيث تقوم آنسة جميلة بإعطائنا دروسا في العزف على آلة البيانو. ولم تمض مدة حتى اتّضح تفوّقي، لا في العزف على آلة البيانو فحسب، بل وحتى على آلة القيتار، ونلت الجائزة الأولى للمعهد. إنني لست أنفي اليوم أنّ كل ذلك كان نتيجة لما أسبغته عليّ أستاذة الموسيقى من حنان خاص. وجهت كل الأهمية إلي كتلميذ موهوب بادئ ذي بدء، ثم كشاب أخذ يثير الإعجاب بألحانه ورقّته، وذكائه. ثم فاض الحنان فجأة، لتتحول الأستاذة إلى معشوقة، معشوقتي أنا، أمزيان الشاوي، كما كانوا «يلقبونني» هناك.

حتى زملائي بمعهد العلوم الدقيقة حيث كنت ممتازا كذلك، كانوا لا يملّون السخرية ولا يدعون فرصة دون أن يلمحوا إلي بترك عالم الرياضيات والغوص نهائيا في بحار الحبّ والموسيقى. كانوا يحسدونني على كوني كنت بارعا هنا وهناك، في كلا المعهدين... وماهرا في اجتذاب الحسناوات رغم كوني لا أفعل شيئا لاقتناصهن.

ثم جاءت سنوات الهجرة الحقيقيّة، واتجهت إلى باريس لطلب المزيد من العلم وللحصول على شهادة عالية... باريس السبع سنوات، التي مرت بهدوء... أو بسرعة... ولست أدري اليوم لماذا أفضّل أن لا أفكر في كل ذلك... أليس لكل مقام مقال !

بعد أن عدت من فرنسا في صيف ألف وتسعمائة وثمانين، وجدت العائلة في حالة متدهورة. كان أبي مريضا إلى حدّ ما، جعل الأقارب يطوفون بالمنزل، عند كل نهاية أسبوع. الشيء الذي كان يقلق زوجة أخي أمقران ويجعلها تنفجر بالمساء. عند رحيل الزوّار، كنت أسمعها من خلف الجدار وهي تصرخ :

– أنا مللت من هذا السجن، كرهت هذه المعيشة... بزّاف عليّ !

ويصمت أخي أمقران، أخي الوحيد والأكبر. كنت أتخيّله في هذه اللحظات مشعلا سيجارة وناسيا إيّاها بين أصابعه النحيلة، مطرق الرأس ويده الأخرى تعبث بمكونات وجهه... وماذا عساه

يفعل ؟ وعده مدير الشركة التي يشتغل فيها منذ أمد طويل بشقة في أقرب الآجال، ومرّت الأيام تلو الأخرى وهو ما يزال متعلقا بالصبر. أمّا زوجته فتيحة فقد كرهت الانتظار، وهي تريد أن تعيش معه هو، ليس مع أمّه وأبيه.

رجوعي من باريس زاد الطين بلة ! ضاقت الدار وتقلّصت بالنسبة لفتيحة، لأنني استرجعت غرفتي واحتللت بذلك – ولا أقول شغلت لأنها ترى في الأمر احتلالا – إحدى الغرفتين اللّتين كانتا تكونان لمدة ثلاث سنوات عالمها الخاص، حيث لا يجرؤ حتى أبي على الدخول، رغم أن الدّار داره.

أما أمي، فكانت تجتنب الاصطدام بها وتخشى أن تؤثر على أعصاب أبي أو على أخي. لذا كانت تكتفي بالصمت وتلتزم اللّامبالاة وعدم الاكتراث لكل ما يطرأ من تغيرات على مزاج كنّتها. كانت فقط تحافظ على نظام المنزل ونظافته و تقضي أوقات الفراغ القليلة في النسيج، وراء نافذة البهو المقابلة لجبل توقر، حيث يقبع التاريخ على الحجارة والثلوج، تحت أغصان الأرز المتوازية، في انتظار الباحثين. سنة صعبة بالنسبة للجميع. أمّا أنا، فأمضيتها بين الديك الذهبي ونزل الشرق وإنجلترا والجامد، حانات المدينة الثلاث آنذاك. كانت فكرة واحدة تشغل بالي في تلك الآونة، العودة إلى أوروبا، لأنّ رجوعي إلى الوطن كان سلبيّا وفاشلا. لم أكن أدري يومها أن تلك المرحلة كانت بمثابة تمهيد للعذاب فحسب، و بأنّني سأدخل مرحلة البلاء الحقيقي.

لست أتذكر اليوم بالضبط متى بدأت أتفطن لشخصيتي الحقيقية. كنت في حالة مرضية خاصة، أعصابي كانت أضعف من أن تطيق ذلك الجوّ المشحّن والمهدِّد بالانفجار، سيما و قد كنت أعيش في عالم آخر، بباريس، حيث كانت لي حرية التصرف في كل ما يمس حياتي.

ذات يوم، وجدت نفسي فجأة مساقا بالعنف إلى المستشفى النفساني بالمعذر، إحدى القرى المجاورة للمدينة.

مريض نفساني... صدمة نفسيّة... انهيار عصبي... تلكم هي العبارات التي كنت أسمع الناس يردّدونها من حولي ويشيرون بها إلى حالتي الخاصة. الناس هكذا، لا يمكنهم إلّا ملاحظة الناس والحكم عليهم مهما كان جهلهم بالحقيقة. يكفي أن يحكموا ليستأنسوا إلى ذواتهم، ليسترجعوا الثقة بأنفسهم، ثم لا يهمهم بعد ذلك إن أصابوا أو أخطأوا، كما لا تهمّهم عواقب أحكامهم وتأثيراتها في نفس المحكوم عليه.

كان المستشفى يعجّ بكل أنواع المرضى، ولعلّ الأطباء أشدّهم مرضا في ذلك المكان الخطير. كان يخيّل إليّ أنّ الجميع يهود من بني إسرائيل وأنهم متكاتلون ضدّي، يريدون بي شرّا. كنت أحس بأنهم يطاردونني بأعينهم، متحفزين للوثوب عليّ لأول فرصة متاحة. لذلك كنت أفتح عيني واسعا، ولا أملّ من مراقبتهم. كما كنت أرفض النوم والظلام وأصرخ بأعلى صوتي في وجه الممرض

اليهودي لكي لا يطفئ النور، ورغم ذلك فهو يطفئ النور.كنت أصمت للتو وأمضي الليل أرهف السمع، أترقّب الصغيرة والكبيرة من حركاتهم. كان بعضهم يئنّ وبعضهم يبكي والبعض الآخر ينام. وكنت أقول لنفسي : «إنّهم يتظاهرون بعدم الانتباه إليّ و لكنّني أعرف ماذا ينتظرون ! لا، لن أنام الليلة ولن يغمض لي جفن».

وفي الصباح، كان يهودي آخر يجلب الفطور، غير أنني كنت لا أذوق شيئا من طعامهم، خشية أن يسمّموني. اللعنة عليهم ! هم قادرون على ارتكاب أيّة جريمة. ألم يحاولوا قتلي من قبل ؟!

كان ضوء الشمس ينبعث بين أغصان الأشجار المتشابكة ويخترق زجاج النوافذ العالية المتراصّة على الجهة المقابلة للغابة والجبل. أشعة ذهبية شديدة اللّمعان كانت توقظني من غفوتي وتساعدني على ملاحظة أعدائي ومراقبتهم بدقّة. وأغلب ظنّي أن الملكان تراءا لي في الفجر الثاني من وجودي في ذلك المكان الغريب، الذي لا يوظّف إلّا اليهود وأعداء المسيح. رأيت على وجهيهما نورا عجيبا لم أشهد مثله على الأرض. وعلى الرغم من أنهما لم ينطقا بحرف واحد، إلّا أن كلماتهما الخرساء كانت تنفذ إلى أعماق روحي. أدركت حينها بأنّ الإلهة هي التي بعثتهما لإنقاذي، وقد أعلماني بالأمر دون أن ينبسا ببنت شفة. فقط، كانا يكتفيان بالنظر إليّ بطريقة مثيرة تجعلني أفهم على الفور قصدهما. لقد أناطت إليهما الإلهة مهمّة حمايتي من شياطين الإنس، لأنّني كنت في موقف ضعف جسماني. أمّا من الناحية

العقليّة والنفسية فقد كانت مسؤولية غوايتي تعود لكبير الأبالسة... ومعه جاء العذاب الأكبر.

كان يطاردني من مكان إلى مكان، يتسرّب عبر دمائي ويثير مشاعري للّاشيء... وكان عليّ أن أوقفه عند حدّه في كل مرّة. كان يتتبّع تسلسل أفكاري ويحشرني في زوايا مخي ويختبئ وسط أحلامي... وكان عليّ أن أستفيق و أستيقظ للدفاع عن روحي ولطرده من محراب أحاسيسي. وحتى اليوم مازال يلاحقني بنفس الإصرار والثبور، يُغلق عليّ منافذ الهروب منه، ويحتّم عليّ مواجهة استمراريّة ستدوم حتى وفاتي في سن التسعين.

تخيّلوا، ستّة وخمسون سنة سأقضيها وجها لوجه مع إبليس. ويصيح أحدكم : «التناقض يزداد حدّة !» إذ ما دور الشيطان إذا كنا جميعا سندخل الجنة ؟ والجواب هو أن الشيطان أيضا سيدخل الجنّة. إنّ لكلينا إنس وجنّ، دور نقوم به ولا نحاسب عليه. لنا واجبات نؤدّيها فقط لقيام الحياة وتفاعلها... إنما الإلهة تبتلينا لمجرد البلاء، إذ ليس هناك أحد يشكّ حقا في وجودها. أليست قاهرة العدم ومبدعة الكون والضياء والحب !

عندما رجعت إلى المنزل، في سيارة لا أتذكر طرازها جيدا رغم كوني متأكدا من التعرّف عليها لو شاهدتها مرة ثانية، وجدتهم قد تغيروا كثيرا، تبدلت عليّ أزياؤهم ونظراتهم. كانوا كلّهم يتظاهرون بالهدوء، ويبتسمون لي، ويعاملونني بكل لطافة،

لكن عيونهم كانت مخيفة ونظراتهم مقلقة وحركاتهم كانت تنمّ على النرفزة المكبوتة داخل أجسامهم.

كان أبي لا يفارق كرسيّه الخشبي وسط البهو، يدخّن السيجارة تلو الأخرى ويمضي وقتا كبيرا في التفكير، وهو يتجرّع القهوة في فنجان واسع من الفخّار يبدو أنّه لا ينضب أبدا. أمّا أمي فكانت تجلس على أريكة قديمة على بعد أمتار منه، أمام النافذة، وتأخذ في النسيج بحركات يدوية تبدو وكأنها آلية، لكنّ نظراتها كانت تتنقل من زوجها إلى باب الغرفة المقابل للبهو، والذي كنت أقبع خلفه أترقّب حركاتهما من خلال فتحة القفل.

لقد أخذت مني الشكوك مأخذا كبيرا. هل هؤلاء هم حقّا أهلي ؟ أم لعلّهم يشبهونهم جسديا فقط، وهم في الواقع يهود ينوون بي شرا وينتظرون فرصة اغتيالي كما تنتظر العقبان أن تنهار الفريسة المجروحة للفتك بها.

كانت زوجة أخي أو تلك التي تشبهها تماما هي الوحيدة التي لا تجاملني قط ولا تبتسم لي أبدا، بل على العكس، إذ أنّها كانت لا تترك وسيلة لمحاربتي وتجريعي كل سموم الاحتقار والازدراء.

– «لقد صار لكم نبيّ في العائلة ! لماذا لا يطلب من إلهتة هاته أن تطعمه وتسقيه وأن تبني له قصرا تحت ظلالها الوارفة ؟ أم لعلّه ينتظر الجنة والنعيم ؟ آه، نسيت أنّ الأنبياء هكذا، ليس لديهم غير الصبر و الانتظار».

كانت كلماتها تلك تنفذ إلى أعماقي كالرصاص، وكنت أرد عليها في باطني :«إنّها تحتقر عيسى المسيح، روح الإلهة وسيد البشر، ولكن لا بأس، فالشيطان هو الذي يحرّضهم ضدي. ثم لماذا كل هاته التخوّفات ؟ لن يستطيع يهودي واحد أن ينال منّي، لأنني سأعيش تسعين عاما وأموت بعدها ميتة طبيعية» إنّ هاته اليهودية التي تمثل دور زوجة أخي، تجهل بأنها ذاهبة إلى الجنة. أرجّح أنها لو علمت بيقين لكانت أوّل من يعطف عليّ ويحافظ على صحتي.

كان أخي أو شبيهه اليهودي يُشدّد عليّ الخناق ويقوم بحراستي عندما أخرج للنزهة والترويح عن النفس في هذه المدينة الأخطبوطية ولا يتركني دقيقة لوحدي. كنت أعتبر ذلك إزعاجا لشخصي المقدّس وتضييقا بشعا لحريتي الطبيعية. لذلك كنت أتحيّن الفرص للفرار من ملاحقته والانطلاق في أرض الإلهة الواسعة لمباشرة العمل والقيام بمهمتي العظمى، رغم كوني لم أبلغ سن الأربعين. السن التي أمرت أن أؤدي فيها رسالتي الحقيقيّة وأن أحدث عددا كبيرا من المعجزات حتى يتبين للناس صدق شخصيّتي وصحة ما أقول. فالكثير منهم يعتبرني إنسانا عاديا، ليس أكثر و لا أقل من كوني أمزيان آيث توڤر، من عائلة فقيرة وبسيطة. فلو أتيح لأحد أمر الدخول إلى المنزل دون سابق إنذار لاكتشف أشياء مدهشة ولتيقّن من أنّ الأسرة ليست من البساطة في شيء، وبأنّ التعقيد والإشكال يكونان طابعها الخاص والمتميز الذي هُيّئ لوجودي.

كان أبي أو اليهودي الذي يتقمص شخصيّته يبدو خجولا حتى الموت. لا ينطق بكلمة واحدة خلال ساعات، ولا يعرف ماذا يفعل بيديه الغليظتين حين لا يمسك بهما شيئا ما. فهو لا يترك المجلّة إلّا ليشعل سيجارة من نوع «صافي» أو ليتجرع رشفة قهوة من فنجانه الكبير أو ليغرق في التفكير وهو يعبث بأصابعه ويلويها. لقد أحيل على التقاعد منذ أربعة شهور، وهو يفكر بفتح دكّان صغير يمكّنه من الحصول على الرزق، دون أن ينحني أمام أخي أو أحد من الأقرباء أو الأصدقاء. والواقع أنه كان يحافظ على البقاء مرفوع الرأس، ولا يمكن أن يركع لأحد. لا، ولا حتى لذلك المرض المفاجئ الذي كان يحاصره طويلا في السرير من حين لحين. لكن الدار ضيّقة للغاية ولن يحصل أبدا على المال الكافي لاستئجار أي محل كان. وهذا ما جعله يعتكف البهو، مسمّرا على كرسيّه الخشبي، يتجرع كميات من القهوة ويغرق في التفكير. أم هل هو يجدّ في البحث عن طريقة تمكنه من القضاء عليّ بهدوء وبرودة، دون أن يفطن لذلك أحد... أظنّ أنّه العقل المفكر الذي أنيطت إليه مهمة اغتيالي. إنّه يكلف ذاك اليهودي الشبيه بأخي بأمر مراقبتي. لقد سمعته ذات مرة يقول له : «إيّاك أن يضيع منك. لا تدعه يبتعد كثيرا !» وذات يوم قرّرت الفرار، وعزمت على التخلص من الحراسة المضروبة عليّ مهما كان الثمن.

عند الظهر، كان «أبي» ينصرف للصلاة بالمسجد «وأمي» تتفرّغ للنسيج بالبهو، أمّا «زوجة أخي» فتذهب للقيلولة

في غرفتها. وكان «أخي» متعوّدا على إعطائي الدواء، ذلك أن زوجته وأمي أصبحتا تخشيان على نفسيهما مني، وخاصة بعد أن ضربت الأولى بصفعة واحدة يوم الجمعة الماضي، لزمت إثرها السرير لثلاثة أيّام، وطاردت الثانية مكيّلا لها عدة ضربات بالمكنسة حتى دخلت غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح.

لقد قرّرت يومها أن أشلّ حركات «أخي» لمجرد أن يقترب مني ليناولني تلك الأقراص الملونة اللّعينة. لذلك وضعت آلة الكي تحت الغطاء وأثبتت يدي على المقبض في انتظار مجيئه. كنت قبل ذلك قد لبست ثيابي وتأكّدت للمرة الأخيرة من وجود عدة أوراق نقدية بجيب سترتي المعلّقة على مشجب الباب. إنني لا أعرف ولا أذكر كيف حصلت على هذ المال. فقط كان معي عند خروجي من المستشفى.يخيل إلي أحيانا أن الملكان اللذان يمنعان عني الأذى هما اللذن تكرما علي بهذا العطاء... طبعا، هي خطة الإلهة... إلهتي الحبيبة !

ولم تمض لحظات حتى فتح الباب بهدوء ودخل عليّ «أخي».

– كيف حالك أمزيان ؟ تظهر بخير... أنت في طريق الشفاء. إنّ ذلك لمؤكد.

لزمت الصمت كعادتي وضغطت على المقبض. كانت نظراتي تحرجه. إنّه أخذ يهيئ الدواء. «لا ! لن أدعه يقترب مني هذه المرّة، سأضربه عندما ينحني ليأخذ الأقراص من الدرج... سأضربه !»

ولكن، ها هو يلتفت إليّ ويعود للكلام :

– ماذا بك ؟ لماذا تنظر إليّ هكذا ؟ لا يجب أن تخاف من الدواء ! هو يعطيك الشهية ويجعلك تنام باطمئنان... ألا ترى بأنّ حالتك الصحية تتحسن ؟

و بعد صمت قصير.

– قل لي هل تحب السباحة ؟ نحن في منتصف فصل الصيف، وعند نهاية هذا الأسبوع تبدأ عطلتي السنوية... يمكننا الذهاب إلى بجاية أو عنابة ... ماذا قلت ؟ حسنا، لا يمكنك أن ترفض.

واستمريت في التمسّك بأعصابي، وبالصمت. وانحنى هو، ليفتح الدرج... «لا يمكنك أن ترفض ؟»... ماذا يعني وماذا يقصد ؟ الاغتيال... هل هي حيلة فظيعة لإغراقي في البحر... لقتلي... للتخلص مني، هناك، بعيدا».

إنني لا أتذكّر جيّدا... أرديته طريحا بضربة قوية على رأسه، أو ربما كانت عدة ضربات متتالية، ثم قفزت من السرير وأمسكت بسترتي وانطلقت إلى الخارج، طائرا، باتجاه محطة نقل المسافرين. ويا للحظ ! بل يا للإلهة المباركة ! وجدت سيارة تاكسي واقفة وسائقها ينادي بأعلى صوته :

– زبون واحد باتجاه مروانة، بقي مكان واحد.

كان ينظر إليّ بإصرار، لكأنّ النداء موجّه لشخصي. وما هي إلا ثوان، وانطلقت بنا السيارة مخلّفة وراءها مباني المدينة التي

كانت تهرب بسرعة مذهلة إلى الخلف. تساءلت :

– الهروب إلى الخلف، ما معنى ذلك ؟

بعد قليل ستَطبق علينا الجبال الشامخة بغاباتها الأرزية وسننعم بهوائها النقي. سنخرج دفعة واحدة من مدينة «اليهود» هاته، ومن غابات الإسمنت المطأطأة التي تحيط بها من كل الجهات. سنمر بالوادي الأزرق، وتبدأ الطريق في الإلتواء، صاعدة نحو القمم، يلتف بها الأرز من كل ناحية، مقتحما بين الدروب ومحاصرا للصخور والمنحدرات الشاهقة. لكم فكرت يومها بتلك الشجرة العجيبة التي تعشق السموّ وتحبّ الأعالي، بحيث أنّ أرزة واحدة مغروسة عند سفح الجبل كفيلة بأن تتحول إلى غابة مذهلة على مرّ السنين. فهي إذا ما وجدت المناخ مناسبا لنموّها تعطي بذورها التي تنقلها الرياح رويدا رويدا نحو الأعلى. وتتكرر العملية مع بقية الأشجار التي تنبتها البذور حتى تصل إلى الذروة.

كان السائق سريع القيادة، فما هي إلّا لحظات وبدأت المدينة تبدو بين فجوات الجبال صغيرة ومبعثرة، هناك في الأسفل. وشيئا فشيئا توسّع نطاق الأفق أمام أعيننا، إذ تراءت لنا مساحات شاسعة من الأراضي المتكونة من الجبال والهضاب والتلال والوديان والسهول الصغيرة، بينما غابت المدينة عن أبصارنا تماما وابتلعها البعد وراء تلك الأسوار الشاهقة التي دشّنتها ثورات الطبيعة في العصور الغابرة.

«مدينة الهروب !... ما معنى الهروب إلى الخلف ؟»

بعد قليل ستنزل بنا السيارة نحو وادي الماء، متّبعة التواء الطريق وخاضعة لانحنائه.

ويسأل أحد الراكبين معي في الخلف صديقه :

– هل انتهوا من أشغال بناء الجسر بوادي الماء ؟

ويرد عليه الزميل ذو الشعر الأحمر :

– قريبا. هناك نوع من التفريط، إنهم ينتظرون فصل الشتاء كعادتهم.

– ومروانة هل تحسّنت بها الطبيعة ؟... أعني هل فعلوا شيئا جديدا ؟ هل غرسوا بها أشجارا أخرى ؟ هل...

– الطبيعة هي هيّ.

– كانت خضراء ومياهها عذبة... والحياة فيها جميلة. هل هي دائما كذلك ؟

ويتدخّل السائق متأسفا :

– «يا حسراه» ذاك زمان !

ويردد صاحب الشعر الأحمر :

– ذاك زمان ! نعم، ذاك زمان.

ثم يستطرد قائلا :

– كانت خضراء، لا ينضب الماء بها، وكانت حيوية والسوق ملأى بأنواع شتى من المنتوجات الفلاحية وحتى الفنية، كالفخار والنحاس والفضة والزرابي التقليدية... أمّا الآن، فلكأنّ الناس

صاروا أعداء أو يهودا، لا يهمهم إلّا الربح، مهما كانت الوسائل ومهما كانت النتائج.

– «يهود !»، «إن هذا الشاب الأشقر قد أصاب الحقيقة... آه ! لعله ليس مثل الآخرين، نظراته كانت بريئة... وحتى زميله أيضا... والسائق ! هو الآخر يبدو وديعا رغم كونه يسرع بعض الشيء في قيادة السيارة. أمّا الراكب الأمامي فهو نائم منذ مدّة وفمه مفغر وتبدو عليه السذاجة التامة... ولكن، كيف لم أفهم ؟! كيف ! هؤلاء ملائكة... نعم ملائكة !»

لقد أصبت تماما في الرؤية. كانوا بحق ملائكة وقد كلفتهم إلهتي الحبيبة بحمايتي من شرّ بني الإنسان. لذلك جاءوا في الوقت المناسب، وهم لا شك سيخرجونني من أرض «اليهود» هاته ويدفعون عنّي أذاهم. ولأوّل مرة منذ زمن غير يسير، شعرت بنوع من الهدوء والسّكينة... لقد رفرف روح الإلهة حواليّ، وانتقلت شيئا فشيئا إلى حالة من الابتهاج. أحسست بسعادة عارمة تجتاح شرايين الدم في عروقي، لم أدر بعدها كيف استرخيت على المقعد ولا كيف استغرقت في نوم ثقيل.

كان الثلج ينزل بغزارة وكنّا منبطحين على الأرض، على بعد خمسة أمتار من المغارة، أو ربما أكثر قليلا. كان الظلام دامسا، زادته أشجار الأرز كثافة على كثافة. تغلّب السواد على البياض مذ ماتت الشمس في آخر المساء، فجأة. لا أتذكر الشخص الذي

كان معي... ربما كان «أبي» أو «أخي»... ولست أدري لماذا كنا في تلك الوضعية بالذات. مجرد إحساس فقط بأنّه يجب عليّ أن لا أقوم بحركة وبأن أنتظر. أنتظر ماذا ؟ لست أعرف. ولماذا بالضبط في هذا الجبل الواسع المخيف، وفي ليلة الثلج المسودّة هاته ؟ لست أدري.

– هل هو الهروب إلى داخل المغارة، إلى البطن، إلى الأرحام ؟ أم هو هروب خارجها ،خارج الظلمات وانطلاق في اللّامفهوم وفي مستويات أخرى غامضة، بحثا عن الذات، عن الروح... عن الرحم ؟ دورة كاملة في بطن الحيوان الرهيب أم تيه أبدي في دوامة دائمة التوسع، لا تكتنفها الحدود ولا يحدّها السؤال ؟

كم من الزمن كان سيمضي علينا ونحن ملتصقين بالأرض، لا نجرؤ حتى على التنفّس براحة، لولا أنّ شيئا ما تحرّك داخل المغارة ؟ لا أحد يعرف. هل هو حيوان مفترس ؟ أم كائن من ذلك النوع المخيف، الذي بمقدرته اختراق الجدران بنفس السهولة التي يخترق بها السكين قطعة سمن ؟ موقف حرج للغاية. فالشخص الذي بجانبي، على بعد متر أو مترين، لا ينطق بحرف واحد... ثم إنّه يخطر على بالي بأنّ وجودنا معا في هذا المكان لم يكن اختياريا. شيء ما أنبأني بالخطر المحدق بي، هزّ أوتار الخوف في كياني.

شعرت فجأة بأنّ ذلك الرجل القابع بالقرب منّي، يراقبني ويتحفّز للوثوب عليّ في أية لحظة. ثم هنالك كائن المغارة المرعب...

- «ماذا أفعل ؟».

تجمدت مفاصلي وبادر القلب برقصته البهلوانية السريعة. كنت أخشى أن يتناهى إلى مسامع الشخص بجانبي ضجيج الدماء وهي تغلي في عروقي... لنفترض أنني كنت قادرا على الهروب منه، هل كنت سأنجو من ذلك الرّابض بالكهف ؟ لعل ذلك هو بالضبط ما ينتظره منّي هذا الرّجل ؟

«أين المفر ؟ أين الهروب ؟».

شعرت فجأة بأن حيوان المغارة المفزع قد تململ في مكانه للحظات، ثم سمعت وقع خطواته الثقيلة وهو يقترب منا...

«يا إلهي ! ماذا أفعل ؟».

وهنا، توقفت بنا السيارة، فتحت عيني وأنا أحبس الصرخة التي كادت أن تنطلق من حنجرتي، ثم أغلقتهما للتو تحت تأثير النور المبهر لشمس القيلولة. كنا وسط غابة وارفة الظلال، لا تخترقها الأشعة الذهبية إلّا على مساحة الطريق الملتوية. وكانت هناك عين ماء باردة، متفجرة بين ثلاث صخور كبيرة.

هرع الجميع إلى الماء، فتبعتهم. وما أن جاء دوري وارتويت حتى سمعت هاتفا يقول لي :

- الإلهة تأمرك بالصعود !».

خلّفت ورائي سيّارة التاكسي وركّابها وهم يلوحون لي بأيديهم وكأنما يودعونني. خرجت من الطريق ودخلت الأدغال، متجها نحو إحدى القمم.

– «هو ذا الصعود الحق !» قلت ذلك لنفسي.

كنت أسير بطريقة شبه لا إرادية. تذكرت الجولات التي كنت أقوم بها في جبل الوحش برفقة أستاذة الموسيقى. فكّرت : «أول نبي فنّان !» عنوان مسلسل تلفزيوني هائل، كفيل بأن يستخلف لمدة كل مسلسلات الأمصار ومغامرات رعاة البقر الخيالية. لكن، سرعان ما أنبت نفسي على انسياقي لمثل تلك الأفكار... حبائل الشيطان !

– لماذا يتعرض لي كلما كنت بصدد القيام بأمر قدسي ؟

– اللعنة ! اللعنة عليك يا إبليـ...

ما كدت أتم جملتي حتى انهدّت ذروة الجبل وغمرها نور ساطع.

لا ! لا يمكنني مطلقا أن أصف لكم مجرى الأمور، لا كيف بدأت، ولا كيف انتهت، ولا ما حدث بالضبط. فالوصف أعجز من أن يعبّر عن ذلك الصوت الضوئي المعطّر، الذي زغردت له عصافير الغابة كلّها ورددده حفيف الأوراق السحري في كل مكان. لم يحظ بموقف كذلك، لا الإسكندر المقدوني العظيم ولا تيمور لنك ملك الملوك ولا حتى سليمان عليه السلام. آنكا (مونكو كاپاك) نفسه وهو يطأ رمال حديقته الذهبية بكيزكو، مصغيا إلى زقزقة الطيور الذهبية فوق أغصان ذهبية مزهرة بالماس واللؤلؤ، لم يعرف مثل تلك السعادة في حياته.

صوت الإلهة ! شرارات ضوئية مزهرة، شديدة الجاذبية والتأثير. كلمات هي ليست بكلمات، ليست من اللغة في شيء ولا تنتمي إلى أية لهجة أو أيّ لسان، ورغم ذلك فلقد كنت أفهم بوضوح لا مثيل له كلامها القدسي. كانت قاسية عليّ في البدء. قالت لي :

– «ماذا ؟! أتريد أن تتحداني أيها العبد الضعيف ؟ أنت تعلم بأنك أصلا عدم... لا وجود لك بتاتا، ولكن، ها أنذا قد أعطيتك الروح لتسمو إليّ والجسد والعقل لمكافحة الشرّ في الأرض. هيا، حاول أن تثبت لي بأنك إنسان، حاول أن تواجه البلاء، فليس هناك أقوى من العدم المشخّص بعدي».

لم أجب. صمتت. كنت مقتنعا بأنني لن أستطيع مواجهة البلاء لوحدي. أفترض أنني أجبتها في أعماق ذاتي. قالت :

– «أتريد أن تبقى أبدا على هذه الطرقات، بدون أكل، بدون مأوى، تشرب التّيه و تلتحف الظلال ؟»

و اهتزّت الغابة من حواليّ. فكّرت :

لا ! لا أريد. ماذا أفعل ؟ وهل يستطيع الإنسان الضعيف مواجهة البلاء من دون مساعدة ؟ لا شك أنّ إبليس قد وجد الطريق إلى رأسي، لعلني صرت أفهم خطأ كلامها الربّاني.

ارتعشت الأوراق على السنديان وتململ الأرز.

– «لا تخف ! الشيطان لا يوجد حيثما أكون. لكن حذاري، لن يدعك تهدأ دقيقة واحدة. إنّه نفي مستمر لذكاء الإنسان. سيتّخذ

منك وسيلة لمهاجمتي من بعيد... بدون جدوى. لقد نبذته قرونا من رحمتي لكبريائه وجعلت منه أداة لابتلاء بني آدم».

كنت أحدّق بالنور دون أن يصيب الألم عيناي، محاولا أن أشاهد شيئا ما من ملامح الإلهة. وكأنّ ملايين الزهور والورود تفتحت دفعة واحدة حواليّ. ملأ الشذى أنفي و جسمي. «أتكون الإلهة قد ابتسمت ؟! »إشتد وطيس النور على القمة وسرت رعشة لذيذة بين الأشجار.

– «لن تشاهد وجهي بعد».

«بالربة، ماذا فعلت ؟» يبدو أنها ما تزال غاضبة بعض الشيء. «هل هو غضب الرحمة ؟».

و انطلقت في الأجواء صرخة دافئة حنون. أصوات الغابة كلّها هدأت، عدا تلك الصرخة التي كانت متواصلة كنغم موسيقي منفرد النظير. «ترى، لماذا اختارت الإلهة أن تكون أنثى ؟»

طبعا، الكثير من الناس – أصدقائي – سألوني عن سرّ ذلك. أرجح أنها لو اختارت أن تكون ذكرا، لطُرح عليها نفس السّؤال. هم لا يفهمون أنها أصلا ليست بذكر وليست بأنثى. وهل بإمكاننا بعد ذلك أن نتّهمها بالانحراف والشذوذ ! هي لا شك، أشذّ موجود، كونها خالقة الوجود من العدم والنور من الظلمات. ويبقى الحديث عن انحرافها بدون أساس. و مع ذلك، فهي قد فضّلت أن تتقمّص شخصيّة امرأة، و كذلك تراءت لي أول مرّة رأيتها فيها.

كنت مستقليا على السرير، في حالة استرخاء تام، لا أقوى على النهوض، مع أنّ الساعة كانت تشير إلى السابعة والنصف صباحا، وهو الوقت الذي كنت أخرج فيه عادة من المنزل آنذاك. لا شك أنّ الليلة كانت هوجاء. فخلال تلك الأيام عشت مسلسلات مطوّلة من الكوابيس المفزعة. وكأن عضلات جسمي كلها ترفض الاستسلام لفكرة الخروج من الدار، كما ترفض الدخول في سمفونية الخوف والرهبة. رضوخ جسماني واستسلام فكري. تحالف الفكر والجسد على الاسترخاء والقبول... القبول للأمر الواقع.

– «لماذا تسأل إذن ؟ ولماذا يتأهب جسمك للفرار ؟».

كان الصباح ماطرا، وفي الغرفة نور رمادي باهت. وكانت الرّيح المزمجرة تحرك ألسنة النيران وراء زجاج المدفأة الحديدية. وفي الخارج كنت أسمع جارنا قاسا وهو ينادي بشدة على ابنه رابح. ولم تمض لحظات حتى تناهى إلى مسامعي صوت محرك سيّارته القديمة، الذي تخاله حشرجة عجوز توغل بعيدا في مستنقعات السنين ولم يعد قلبه الهشّ يقوى على نوبات السعال المفاجئة.

وبالغرفة المجاورة احتدّ الحديث. كانت «فتيحة» تصرخ وكان «أخي» يصرخ. هكذا صارت حياتهما الزوجية. ضجة قبل أو أثناء أو بعد الفطور، غداء صامت وضجة أخرى خلال أو بعد العشاء، أو العكس. فطور صامت، غداء وصراخ، وبالمساء عشاء يكتنفه سكون جنائزي.

كان لا بد أن يُصفق الباب، وما هي إلّا دقيقة وصفق الباب. «لا شكّ أن أخي سيصل إلى مكان عمله متخلّفا كالعادة» لم أكن أستطيع الامتناع عن التفكير بكل ما يحدث لهما بسببي.

– لماذا تركت باريس ؟ لماذا ؟

عندما كنت هنالك، أي بالعاصمة الفرنسية، لم يكن لحياتي معنى معيّنا، رغم الدراسة التي كانت تأخذ أكثر من نصف وقتي. وكنت – إذا ما استثنينا العام الأخير – أمضي ما تبقّى من الزمن بين النوم والمطالعة واللهو. وكثيرا ما كانت أفكاري تتمحور حول الماضي وتعود بي إلى مدينة النسور والجسور، إلى قسنطينة، حيث تمتزج الألحان النّابعة من آلة البيانو بأغاني الأستاذة الجميلة. كانت صورتها لا تبرح ذاكرتي خلال اللّيالي الجامدة، حين تنقضّ عليّ الوحدة انقضاض الصاعقة وتفرض عليّ مراسيمها الاستبدادية. ورغم ذلك، فهي أفضل من الإحساس بوجودي بين أسرة تعيش طقوسا مأتميّة وتفرض الخوف كصلاة يومية.

كان المطر يتهاطل بغزارة شديدة في ذلك الصباح الأسود، ولم أكن أسمع إلّا صوت السيارات والمركبات وهي تشق طريقها بين المياه. وفي لحظة هدوء تام، راحت نظراتي تتجوّل بين أنحاء الغرفة ثم ثبتت على المدفأة الحديدية. كانت الأمواج الصغيرة المتأجّجة تتراقص خلف قطعة الزجاج المستديرة. فكرت :

«الإلهة خلقت إبليسا من نار».

واندهشت لهذه الحقيقة. تساءلت :

– لماذا من النار ؟ وكيف ؟ كيف... ؟

وفجأة تلاشت المدفأة ! صدقوني ! حلّ محلّها نور مبهر. وشيئا فشيئا تمركز النور في مكان معين وراح يتشكل في صورة امرأة مشعة بارعة الجمال.

ما جدوى أن أقول لكم بأنني بقيت مسمّرا على السرير، في حالة انشداه تام. وكأي إنسان يشاهد أعجوبة تحدث أمام عينيه دون سابق إنذار، أصابني شلل كلّي، كأنّ الروح والفكر انعدما في جسدي. كنت بلا حراك، وفي آن واحد، شديد الانجذاب إلى ذلك البهاء الخلّاب، إلي تلك الشفافية المبهرة، إلى ذلك الجمال الغريب الخارق للقواعد العامة والاستثنائية.

أبت الأمطار إلّا أن تكف والضجيج إلّا أن يصمت. وخيّم هدوء كلسي على المكان الذي فقد لونه الرمادي واستخلفته لازوردية السماء، بل قل الفردوس. لا ! لن يجرؤ أحدكم على تكذيبي. كانت تصلّي... تصلّي بكل هيبة وإجلال. ولكن، لمن كانت تفعل ذلك ؟ ومن أجل ماذا ؟ ولماذا اختارت هاته الغرفة بالذات ؟ ثم لماذا وقع فعلها ذلك في مكان المدفأة... في مكان النار ؟ أسئلة لا محلَّ لها من الجواب. النار والنور... ما العلاقة بينهما ؟ إنّ النّار تنتج النور... ملائكة من نور وملائكة من نار ! ما معنى ذلك ؟ كادت تلك التساؤلات أن تفتك بخلايا مخّي، لولا أنّ المدفأة عادت

من جديد إلى مكانها وكأنّ شيئا ما لم يحدث من قبل. وعاد الضجيج إلى المنزل والطريق، كما عاد المطر وبشدة لا تضاهى.

أدركت كل ذلك فجأة. كانت نظراتي لا تزال مثبتة بالمدفأة بل، وبصفة أدق، بألسنة النار التي كانت تتعانق وتستطيل وتلتوي وراء الزجاج. دخلت إثرها في حلقة من الأفكار الفلسفية حول الوجود وتواجده والتي كانت تنتهي بي دائما إلى التقوقع داخل ذاتي. كنت لا أفكر بالعدم كوني كنت أعتبر ذلك عديم الفائدة ومضيعة للوقت، وذلك للتناقض الصارخ الذي يبدو مباشرة كلما أردنا أن نتحدث عن لا شيء. وهذا ما جعلني أنطلق دوما من حقيقة الوجود ككل، مرتكزا في ذلك على حقيقتي الخاصة كونها أقرب الحقائق إليّ، على الرغم من تفاهة تأثيرها على الحقيقة الانسانية وعدم فاعليتها بالنسبة لحقيقة الوجود الكلّي.

كنت أنزوي داخل ذاتي لعدم اقتناعي بأفكاري وبمفعولها، بل وبكل الأفكار الفلسفية الأخرى حول الوجود. إذ لا يمكن للإنسان العاقل أن يقتنع الآن بأيّة فكرة لا ترتكز على حقيقة علمية ثابتة وبراهين قاطعة لا مجال للشك فيها. فما معنى، مثلا، أن يكون الوجود قد أوجد ذاته بذاته ؟ وما معنى أن يكون قد أوجد من طرف فاعل خاص ؟ لأن نفس السؤال يتعلق بالفاعل الذي يكون في هذه الحالة قد أوجد نفسه بنفسه. والواقع أنّ كل هذه التساؤلات لا تؤثر في تواجد الوجود الذي يبقى مواصلا تطوره

السرمدي. أضف إلى ذلك، أن الإلهة موجودة فعلا وهي تسيّر الكون كما تشاء، فما جدوى التفكير إذن ؟!

أمضيت النهار كله ممددا على السرير، أدخّن السيجارة تلو الأخرى، غير آبه لما يحدث في الدار أو في الخارج. كنت كلما أريد التخلص من فكرة ما، تعبث بدماغي أفكار أخرى وتقف حجر عثرة أمام ذكائي. كنت أقول لنفسي :«حذاري، لا تفكر ! لا يجب أن تفكر !» ولكن ؟

«الإلهة تصلّي من أجلي !».

وفي تلك الليلة، بينما كنت غارقا في لجج الأحلام، تراءت لي الإلهة ثانية و كلفتني بالمهمة المقدّسة الّتي وجب عليّ القيام بها. أذكر أنني استيقظت مباشرة بعد ذلك. كانت الغرفة لا تزال مكتظة بالظلام، وروح الإلهة يسري في أجوائها. وما أن لاحت أشعة الشمس حتى خرجت إلى شوارع المدينة. ولَشدّ ما كانت دهشة المارة حين يرونني ساجدا في إحدى الزوايا، على التربة المبللة، ثيابي ملطخة بالوحل ووجهي معفّر بالطين. كانوا يسرعون بالالتفاف حولي، محاولين فهم ما يحدث لي. كان أغلبهم يحسبني مخبولا، وكانوا يتأسّفون، ثم يواصلون مشوارهم، كلٌّ وراء همومه ودنياه.

أمّا أنا، فكنت لا أحسب لهم أو عليهم حسابا. كنت أدرك جيدا أن عقولهم الضيقة لا يمكن أن تتفهّم أمورا كتلك ؛ وكنت أشفق عليهم كثيرا. كنت أخشى فقط أن ينزلق الشيطان بيني وبينهم

ليفصل بين شخصيّتي الحقيقية وشخصيّتي الواقعيّة في أذهانهم. إنّ حبائله كفيلة بأن تدير رؤوسهم، بأن تثير الشكوك في أنفسهم، وخاصة أولئك الذين أعرفهم ويعرفونني : أبناء الحيّ وزبائن مقهى إمدغاسن، أولئك الذين يسمّونني أمزيان آيث توڤر، ابن الحاج. وأولئك الذين يضحكون في وجهي :

– «هه ! أمزيان المسيح. إنه الآن يسجد للإلهة في كل مكان !».

والواقع أن أكثرهم كان لا يعتبرني نبيا في ذلك الزمان : أصدقائي كانوا يعتكفون المقاهي وينسجون خرافات الجنس والثروة التي يمزجونها بحشرجات الثورة، في جوّ من الدخان المستورد والضجيج الموروث. وكان أعضاء أسرتي، قبل تحوّلهم الغريب إلى «يهود» حقيقيّين، يشفقون على حالتي الصحية والعقلية، كانوا ينظرون إليّ نظرتهم إلى مريض نفساني ؛ وكانت أمي تكاد تشاركني «مصارعة الجن» حسب تعبيرها، ومن فرط حسرتها عليّ. لم يخطئ زميلي في النبوّة حين قال :

«الجنة تحت أقدام الأمهات».

ولم لا ؟ فالإلهة أم الوجود، خالقتي ومعشوقتي في آن واحد، أمّي وحبيبة روحي. أنا العدم المشتّت الذي جمعت أشلاءه من لا شيء وابتدعته مخلوقا فريدا وفضّلته على جميع الكائنات. أنا الذي سأتربّع على عرش الوجود إلى جانبها، أتمتّع بديمومة الخلود

والوصال... أنا عيسى المسيح، أبو التاريخ الحديث، وتلكم هي شخصيّتي الحقيقيّة التي لا مناص لكم من الاعتراف بها.

إنّ من يحكمون عليّ عبر شخصيّتي الواقعيّة، ولا يقبلون فكرة وجودي في الماضي ومجيئي إلى الحياة دون أب، لهم أضعف البشر وأشدّهم حاجة إلى النور. طبعا رسالتي تتلخّص في كلمتين : «الجنة للجميع !».

لذلك لن أرهب أحدا بفكرة الجحيم، كون الإلهة أبطلته، ثم إنّني ضد الإرهاب وكلّ ما يشبه التنكيل والعذاب.

لقد أمضيت قرابة شهرين في صلوات متواصلة وخشوع دائم، لدفع أذى الشيطان الذي كانت نظراته لا تفارقني أبدا. كنت أحس بوجودها في كل مكان، خلف النافذة، وراء الستار، بين الأشجار والشوارع، وحتى في الطعام الذي كانت تقدّمه لي أمّي قبل أن يصيبها المسخ وتتقمص شخصية «يهودية» لا صلة لي بها إلّا كونها أمّي في الواقع، وهي غير أمّي في الحقيقة. أليست زوجة الرأس المفكر الذي يستعمله إبليس كأداة لاغتيالي ؟ ولا أشك اليوم، بعد أن قررت الفرار منذ مدة، أن ذاك الذي يشبه أخي لا ييأس من البحث عنّي في كل مكان، متآمرا مع العشرات من الأشرار و«اليهود» الموجودين في جميع أنحاء الجزائر لإلقاء القبض عليّ ولإغراقي في البحر مثقّلا بصليب ضخم من الفولاذ، تنفيذا لخطة الإعدام التي حيكت ضدّي.

عندما أمرت بالصعود إلى قمة جبل توقر للقاء الإلهة، كنت عازما على الذهاب إلى الغرب طلبا للهروب من قبضة أعدائي. لكن الجوّ الرائع الذي حفتني به الإلهة وسط الغابة والوعود الكبرى التي خصتني بها حين قالت لي :

- «سأضعك فوق الشمس ولن أفضل عليك أحدا».

تلك الوعود التي جعلتني أغير رأيي تماما، إذ ما جدوى الذهاب إلى الغرب إذا كانت الإلهة قد قرّرت ابتلائي في كل مكان قبل أن تُكرّمني نهائيا.

غير أن الشيطان كان لي بالمرصاد، وكان عليّ أن أنتظر سنّ الأربعين لاكتمال شخصيتي الحقيقية وللقيام بمعجزات تدحر عقول أشدّ العلماء ذكاء وفطنة وأعمقهم فلسفة و فكرا. كان الشيطان لا يدع وسيلة إلّا ويجربها ليزيدني اختناقا على اختناق. مكائده ودسائسه فرضت عليّ الفرار فرضا... الفرار لسنوات عديدة.

إثر نزولي من قمة جبل توقر المجيد، كنت قد استرجعت الثقة في قوّتي الجبارة، قوة العدم المشخص. كان إبليس يرهب مواجهتي، يخشى أن يقف أمامي وجها لوجه. كان فقط يكتفي بملاحقتي وبالتصور لي في أشكال شتّى، يريد من ورائها تشتيت قواي ثم القضاء عليّ بعد ذلك. وكانت نظراته مدسوسة في كل شيء، وحتّى في عيون ركاب الحافلة التي انتشلتني من عذاب الطريق وطولها.

لقد دام السفر طويلا، الشيء الذي دفعني للاستغراق في النوم، غير آبه لنظرات الاشمئزاز التي كان يلقيها عليّ من كانوا بجواري. فوجئت بعد مدة بصوت مزعج يأمرني بالنزول لتناول الغداء، إن كنت أرغب في ذلك. ولّما سألته أين، أشار إلى المبنى المقابل بأصبعه دون أن ينبس ببنت شفة، ثم استدار وطفق نازلا. أسرعت خلفه، وإذا بي في مطعم واسع به عدد كبير من الطاولات والكراسي، حيث جلس الزبائن وأغلبهم من ركاب الحافلة. أخذت مكانا بين شخصين كانا غارقين في صحنيهما، وطلبت من الخادم أن يأتيني بالطعام. تقدم هذا الأخير برشاقة وشرع يسرد عليّ قائمة ألوان الأطعمة الموجودة لديهم، طالبا مني الاختيار. قلت :

– هات ما تريد.

وأسرع الخادم باتجاه المطبخ ثم عاد بصحن من « الشوربة » وبما يلزم من أدوات الأكل، وسأل مبتسما :

– هل تريد قازوزة ؟

– نعم، بيضاء.

وعاد الخادم وبيده زجاجة ملأى بسائل أصفر فاتح وقال :

– البيضاء نفذت. لم تبق إلّا الصفراء.

قلت :

– لا بأس.

وانصرف الخادم.

وما أن انتهيت من الأكل حتى بادرت بالرجوع إلى الحافلة. كان الركاب لا يزالون يزدحمون حول مصرف المطعم لدفع ثمن الطعام. أمّا أنا فكنت لا أملك الشيء الكثير، لذلك قررت أن لا أدفع شيئا. قلت في نفسي : «ستكافئه الإلهة... لا أشك في أنها ستفعل ذلك».

استويت على المقعد ورحت أنظر إلى واجهة المطعم حيث علقت لافتة مكتوب عليها بخط رديء لا يخلو من الأخطاء «مطعم المسفرين». حينها، أخذت صفارة الحافلة تنذر الركاب إشارة للصعود، وما هي إلّا دقائق وانطلقت في عرض الطريق. لست أذكر جيدا ما حدث بعد ذلك. عندما أفقت من النوم الذي أغمض جفناي، وجدتني في مدينة كبيرة، وسط جيش من الحافلات. ونزل جميع الركاب، فتبعتهم وسألت أحدهم :

– أين نحن ؟

فأجابني بابتسامة محيرة قائلا :

– نحن في العاصمة يا أخي.

– العاصمة !...

رحت أتجول عبر الشوارع. سمعت أحدهم يقول لصاحب كشك كبير، وأنا أنتظر دوري لأتزود بعلبة تبغ :

– «لقد هجموا علينا من كل النواحي والضواحي، شوهوا وجه المدينة ومسخوا جمالها قبحا... لم يتركوا فيها شيئا».

ويرد عليه البائع :

- «لم يبق لنا إلّا الفرار !».

طنّت تلك الجملة في رأسي طنين النواقيس ! وكما حدث في كل مرة من قبل، تيقنت من أنّ الخطر محدق بي من جديد. لم يبق لي إلّا الهروب في أسرع وقت. الملائكة تحذرني من الشر الذي ينوي «اليهود» إحداثه بي، وأيّ شر !

أدركت أخيرا أنني محاصر من جميع الجهات وأنني لست حرّا في وجودي، رغم القوة الكبيرة التي منحتني إيّاها إلهتي العزيزة. تلك هي الحقيقة التي أعيشها يوميا. كان عليّ في كل مرة أن أختار بين أمرين : الموت أو الهروب. وكلاهما بلاء لا بد منه.

الهروب إلى الخلف أو الهروب إلى الأمام ! الهروب إلى الموت أو الهروب إلى الخوف الممتد، الدائم الامتداد. كان عليّ أن أتنقل في كل مرة من مكان إلى مكان، من قرية إلى مدينة ثم إلى قرية. وفي بعض الأحيان كان الشيطان يضيق عليّ الخناق. وكنت ألجأ حينها إلى الأدغال وأعرض عليه المبارزة. غير أنّه كان يبتعد بسرعة عنّي، وتنطلق خلف عباءته الشفافة التي يبدو من خلالها ذنبه الطويل وأرجله المعوجة المفرطحة، ضحكته المدوية الساخرة التي تزعزع الغابة.

عشرون يوما أم عشرون عاما

عشرون يوما أم عشرون سنة ؟ هو لا يدري. كم عدد الفتيات اللواتي ارتبط بهن في حياته ؟ ربما كانت عشرين فتاة، ولكنه لا يدري... إنّه يكاد يفقد الذاكرة. كان أخوه يلعب في المنزل مع أخته، واشتعلت النّار فجأة في المطبخ.

أضواء البهو ! استوقف زميله قائلا :

– ها قد مات جدي !

مات جدّه البحّار الذي كان يقصّ عليه حكايات جميلة،تحت الكرمة الوارفة الظل. أخوه نقل إلى المستشفى حيث بقي يعالج لعدة أيّام، وكاد الذنب أن يلقى على أخته.. كانت الأم في السوق وكان الأب بالمسجد.

عشرون يوما أم عشرون عاما ؟ إنّه لا يدري. اكتشف الحبّ لأول مرّة في قصة ثليجة البيضاء ؛ وبقي متشبثا بذلك الحلم

سنوات لا تحصى. واكتشفه للمرة الثانية وهو يقف أمام الكشك لابتياع أول علبة تبغ وهو لا يدري لماذا. أبوه كان يراقب البنّاء ومعاونه ويحتسب عليهما كلّ كبيرة و صغيرة.

كان الوطن برمته يجري على جسده المقروح عملية جراحية كبرى. وكانت الثورات إيجابية شاء الشعب أم لم يشأ. مدينته دخلت مرحلة الغليان، زادتها كثرة البطون شراهة. وحتى الأسواق كانت لا تتمركز بحي من الأحياء حتى تبرحه لآخر، تاركة مكانها لعملية جراحية أخرى، وفي بعض الأحيان، لمأساة حقيقية.

عشرون يوما أم عشرون عاما ؟ هو لا يدري. لا يتذكر حتّى أسماء الشوارع في حيّه. ولعلّها كانت لا تملك أسماء حينذاك. كان التاريخ يحلم بالأزمنة الغابرة ويتهيأ للقيلولة. جدّه طلب منه سيجارة... كانت أخته الوسطى تقرأ جريدة النصر، بينما كانت أمّه تئن على السرير في الغرفة الأخرى... وفي الظلام. الشاشة الصغيرة كانت تعرض صورا لرفات الشهداء والأموات التي كانت تنقل إلى أماكن أخرى، لتنال حظّها من ثمرات الاستقلال. وكان كتبة التاريخ يسجلون أهدافا أسطورية في شباك الأمبريالية وعملائها.

وفي الشارع المكتظ، كان هناك سكير يغنّي نشوته على نغمات الاشتراكية...

– أريد المزيد من الحليب، قال أخوه الصغير.

وردت عليه الأم قائلة :

– عندما تكبر، عليك بالانتماء للثورة الفلاحية !

تزوج أخوه الكبير بحبّه الكبير. ووقعت حادثة المروحة من جديد، ثم تلتها معركة البترول. كان ذلك قبل وفاة جدّه، وقبل بناء الملعب الجديد بالمدينة.

قال لصديقة وهما يتجولان :

– أريد أن أتذكر اسمي !

انفجر صديقه بالضحك وجرّه نحو المقهى :

– هل تريد ڤازوزة باردة ؟

ضوء الشمس كان مبهرا، وكان الأطفال يلعبون بالتراب...

عشرون يوما أم عشرون عاما ! إنّه لا يدري. لا يدري حتى كيف وصل إلى هنا. إلى مطبخ المستشفى. حيث كانت إحدى العاملات تكنس البلاط.

كان عائدا أمس من قسنطينة، بعد أن أنهى دراسته الجامعية. كاد السائق أن يرمي بكافة الركاب إلى موت محقق، لكن القدر لم يشأ. كان هناك حادث مميت وقع بالجهة الأخرى من البلاد. أغمي على أمّه بالمستشفى ووقف أبوه واجما هناك.

إنّه زمن العشق والرحيل، زمن الموت والوداع. حتى الصحراء التي كانت تزحف برمالها على الشمال دون هوادة، توقفت في لحظة صمت رهيب قبل أن تدخل معركة السد الأخضر.

– مات أخوه... لقد مات أخوه !

وعادت إليه سنونوة المهجر، طبعت على شفتيه قبلات محمومة، عانقته، خاصرته، خلعت ثيابها وغطست في عينيه...

عشرون يوما أم عشرون سنة ؟ هو لا يدري ! استدعي للخدمة الوطنية وهو لا يزال يزاول دراسته بالجامعة. راوده حلم الهجرة طويلا. «سيتزوج أمريكية أم إيطالية» قرر ذلك وهو لا يدري.

لكن حياته سارت على مسار آخر، وتغيرت أفكاره كثيرا.

– المنزل مظلم ! قال لنفسه، هو ذا الجحيم ! وجال ببصره في أرجاء الحي الغارق في الظلام...

أذاعت سيارة البلدية عبر مكبر الصوت خبر انقطاع الماء لمدة يومين. وجاء موسم الحصاد ليعلن عن بدء سياسة التقشف وبث الوعي في أوساط الجماهير. كان الأطفال ينثرون الغبار على بعضهم البعض ويصفقون بحرارة، وكان الآباء يكشرون عن أنيابهم.

– لا أريدك أن تتسكع هكذا في الشوارع مع طائفة الأشرار هذه ! قال له أبوه وهو يحملق في وجهه.

عشرون يوما أم عشرون عاما ؟ إنّه لا يدري. التقط صورة شمسية لفتاة ما على طريق ما، وأقنع نفسه بأنّ الحياة جريمة. راح يمزق الصورة ويكيل الشتم لشخصه. كان أخوه الكبير بسويسرا عندما رنّ جرس الهاتف. جدّه ناوله كتابا أصفرا وقال له :

– اقرأ عليّ حكاية السيد علي مع رأس الغول !

وقع حادث الطائرة المريع... وتبارزت الصحافة العالمية في السماء. كان على السكان أن يبقوا في أماكنهم أمام الشاشة... أحد أكبر آلهة الإغريق سينزل ضيفا على المدينة، نتيجة لموقف سياسي هام. وفي حرّ الصيف، تهاطلت الحجارة من السماء... كان أحد السوقة قد إدّعى النبوة في الجنوب فزج به في السّجن. وفي الشمال، كانت طيور الحرية تدفع إلى الأقفاص دفعا لتشكل حروف الهزيمة على جبهة الحضارة في عالم اليوم.

قال له صاحب الغليون :

- من أنت ؟

وأجابه.

- أكبر أكذوبة في حياتي هي اسمي.

ولّما ألحّ عليه بالسؤال، ردّ عليه :

- من لا يموت... أنا من لا...

وسقط منديلا في يد الغطرسة الفولاذية، وانهزمت بيروت.

كان أبوه في المسجد، وكان أخوه يلعب بالنّار. أمّا هو، فكان مستلقيا على ظهره فوق الأرض المعشوشبة، وبقربه، كانت صاحبة المجوهرات السود ترمق زرقة السماء من بين أغصان الصنوبر :

- أنا خائفة، قالت وهي تلعب بأصابع يديه.

كان يحلم ببناء منزل بأصابعه تلك، لا كالذي بناه أبوه بدمائه في وسط المدينة رغم أنف الفقر. كان حلمه منزلا جبليا لا تعقيد فيه، منسجم مع الطبيعة وبسيط كمنازل الأجداد.

قال أخوه:

- إنني قادم يوم الخميس ومعي هدايا للجميع.

وصفق الأطفال مبتهجين.

عشرون قبلة متتالية، وانصرفت. دلف إلى النهج وقلبه يدق، كان هناك حشد ينتظر.

«لا ! لن يتركها تنصرف هكذا، هو لن يقبل بذلك أبدا».

تأكد أن ليس هناك قطرة خمر واحدة في كل المدينة. لا شك أننا سنغرس كل الأراضي قمحا، وستنجح الثورة ضد المرتزقة... أخوه الصغير كان يضع مرهما ضد الحروق على رقبته وصدره. كان ذلك قبل أن يتم بناء الملعب الجديد، و قبل أن تتوغل جيوش الرمال في قلب الأرز والصنوبر.

وعلى ضفاف البحر الأبيض المقدس، لفظت الأمواج صندوقا عجيبا. البحار العجوز أخرج منه مرآة لا تعكس صور المنافقين. ألقى بجريدة الشعب على الطاولة وطلب من القهواجي أن يأتيه بكوب من الماء. كلّمه شاب يجلس وراءه :

- الماء مقطوع لمدة يومين.

عشرون يوما أم عشرون سنة ؟ هو لا يدري، لقد كانت بين أحضانه صدفة. دفئها تسرب إلى جسمه... مات من الحنين الخام. كم مرة داعب هذا الشعر الأسود الحريري ؟ مائة مرة ؟ إنه لا يتذكر جيدا. فمن صدفة لصدفة تضيق المساحات ويصعب التركيز وينعدم التوازن. أخته كانت تلعب بالمنزل مع أخيه.كانت

الأم تخيط جلبابا وترقب حركاتهما من حين لحين. وبالطابق العلوي تواصل الصخب. البناء يصيح ومعاونه يصيح.

– لقد عاد النبي ! عاد النبي...

طنين المذياع صار لا يطاق. أخوه أغلق الكتاب وطفق ينظر إليه :

– ما هذه الرائحة ؟

– ماذا ؟

إسرائيل قامت بعبور مضاد للقناة. وفي إفريقيا الجنوبية عشرات الثوار كانوا يساقون للموت تحت أنظار الشعوب المحبة للسلام. وأضحت هيئة الأمم المتبددة أضحوكة الجميع. كان الأطفال يغنون أناشيد وطنية، وكان المدرس يفتعل الحماس... كم مرّة داعب هذا الشعر الأسود ؟

عشرون قبلة أم مائة قبلة ؟ هو لا يدري. أمّه أغمي عليها. وكان الحشد ينتظر...

– سيّد الرجال ! قال الجد وهو يتناول سيجارة أمريكية ويديرها بين الإبهام والسبّابة، قطع له رجله بضربة سيف واحدة، سيد الرجال ! راح يفرك عينيه من النعاس، نعم سيد الرجال. تثاءب... وضع السيجارة بجانبه، على البلاط.

نهر الرّماد فعلت به الريح ما فعلت، والجماهير كانت تهتف بعهد جديد. وأعلن في كامل البلاد الممتدة بين البحر المقدس وطوفان اللّهب بأنّ القانون فوق الجميع... أخوه الصغير كان

يعبث بعيدان الكبريت. زوجة أخيه نقلت فورا إلى جناح آخر من المستشفى.

وكان هناك رجل يتبول من الخوف في زاوية مظلمة، وينتظر الشمس.

عشرون يوما أم عشرون عاما ؟ إنّه لا يدري. اكتشف الحبّ للمرة السابعة وهو يجلس إلى طاولة الشطرنج مع فتاة أجنبية. أول جلسة شطرنج رومانسية. للحب أكثر من وجه ولون. اعترف بذلك وهو يتنازل عن قلعة كاملة إجلالا لفخامة الجنس اللطيف. كان الوطن في مرحلة المخاض. وكان الأطفال يقلدون أزهار عباد الشمس ويهتفون بأغاني الحبّ والسلام. وخلف الجدران، كان الآباء يمسحون الغبار عن بعضهم البعض ويقهقهون :

- فلان كذا، كان بطلا.
- وفلان كذا، كان أيضا بطلا.
- وحتى فلان ابن فلان، كان بطلا. أي والله !
- ليس للأبطال مثيل !

أبوه كان متهجم الوجه، جامدا في مكانه، لا يجرؤ على الدخول ثانية إلى تلك الغرفة.أمّا هو، فقد أصيب بالذهول لمدة ساعة، ثم انخلع من مكانه إلى حيث لا يدري.

قالت له إحدى العاملات حين رأته مقبلا :

- أنت في المطبخ ! عد من حيث أتيت.

سنونوة المهجر رجعت إلى موطنها : عادت إليه. إنّه يكتشف الحبّ للمرة الثامنة. لقد غطست في عينيه نحو الأغوار.

قال لنفسه :

– «لا أصدق ! تحقق الحلم ! ثليجتي البيضاء عادت إلي، وها هي تغوص في جسدي».

إنّه زمن العشق والوداع، زمن الموت والرحيل. خبر المرآة العجيبة تناقلته الألسنة في كل مكان. لكن البحّار العجوز هو وحده الذي شاهد تلك الحورية التي كانت حبيسة الصندوق، شاهدها وهي تمرق منه وتركض عارية على الشاطئ، ثم تتوارى رويدا رويدا بين أمواج البحر.

كان الوطن يضمد جراحه المتعددة ؛ وقلب مدينته كان ينبض بقوة على غير عادته. أمّا الصحراء، فقد أعلنتها حربا ضروسا على أبناء الخدمة الوطنية. كان أبوه بالمسجد ؛ واشتعلت النار فجأة في المطبخ. قال لزميله.

– لقد مات أخي !

عشرون يوما أم عشرون سنة ؟ هو لا يدري. لا يتذكرحتّى أسماء رفاقه في الحيّ، أم لعلهم كانوا لا يملكون أسماء «مثله». كان التاريخ لا يحفل بشيء. لحيته الطويلة كانت تتعفّر بالتراب وهو يهرول ذات اليمين وذات الشمال باحثا عن أشلائه. صاحبة المجوهرات السود ألصقت شفتيها بشفتيه، وانمحى كل شيء. سعدية المجنونة كانت تصرخ في عرض الشارع، وحتى البناء كان يصرخ بمعاونه الّذي سرح به الخيال. وعلى الطريق المؤدّي إلى مدينته، كاد السائق أن يلقي بهم إلى الجحيم. أخوه وضع الكتاب

جانبا وراح يحدق به.

– ماهذه الرائحة ؟

ليس هناك قطرة خمر واحدة في كل المدينة. كل الأراضي زرعت قمحا وشعيرا، ومعركة البترول فاقت كل التوقعات، بعد أن ارتبطت بمصير المواد الأولية. ولأول مرة منذ قرون، أذعن الغرب المتزمت عن مضض لبعض مطالب العالم الثالث. كانت الشاشة الصغيرة تنقل صورا لأجداث الشهداء والأموات، الذين استخرجوا من باطن الأرض ووضعوا في أماكن أخرى تؤهلهم للمشاركة الرمزية في بعض الطقوس الموسمية.

– ليس للأبطال مثيل، أي والله !

وفي الناحية الأخرى من البلاد شاء القدر أن يقع حادث المرور المميت. لقد أغمي على أمّه بالمستشفى. زوجة أخيه نقلت على عجل إلى جناح الإسعاف. أمّا هو، فكان لا يدري أين يضع رجليه ولا يحس بهما حتّى.

كان جدّه يحبّ السجائر الأمريكية لأجل النكهة التي تتميز بها، وأكثر من ذلك، كان لا يرتوي من قصص الأنبياء والأبطال.

قال أخوه الكبير عبر الهاتف :

– إنني قادم عند نهاية الأسبوع، ومعي هدايا كثيرة.

صفق الأطفال بحماس وتسابقوا باتجاه الباب، كأنّه سيدخل للتو ويداه مثقلتان باللعب والحلوى.

موظف البلدية أذاع عبر مكبر الصوت نبأ انقطاع الماء لمدة ثلاثة أيام كاملة. كانت الصحراء قادمة بكل إصرار إلى الشمال، متحدية متاريس السد الأخضر. استوقفه رجل قائلا :

– لا يمكنك أن تمر قبل أن تكتب اسمك ولقبك وجنسيتك وموضوع الزيارة ثم توقع في الأسفل بخط واضح.

– اسمي ؟ لا أدري.

البحّار العجوز تعوّد على فتح الصندوق العجيب كل مساء. هو ينام بداخله على وقع الأغاني البحرية التي لا يفتأ يرددها كالمعتوه. إنّه يحاصر طيف تلك الحورية التي مرقت منه، أو لعلّها عروسة بحر... الطائرة التي كانت تنقل وفدا هامّا قد انفجرت بالسماء...

– لقبي ؟ لا أدري.

المرآة العجيبة وقعت في يد السلطان. هي لا تعكس صورة لمنافق، لكن السلطان لا يملك أن يكون غير ذلك. طيور الحرية كانت تعوّدنا الانتحار هكذا، وبكل بساطة، داخل الأقفاص والمعتقلات.

– جنسيتي ؟ لا أدري.

متمزق بين العشق والموت، بين الوصال والأنين. عشرون عاما يلهث، يتسكع في شوارع ملأى بصخب الأطفال وافتراء المدعين. دور يتيه فيها الشتات وينتصب فيها الفقر بكل هيبته وضراوته.

كلب وطفل يتعانقان. وللأرض بعد موتنا كل الربيع...

– موضوع الزيارة ؟ لا أدري.

كان أحد أكبر آلهة الإغريق يطوف بالمدينة. صور المصافحات والعناق كانت في أتم الروعة. أمّا هو فتنازل عن قلعة «كاملة» إجلالا لفخامة الإلهة التي كانت تجلس عارية أمامه.

نور الشمس كان يخطف الأبصار، وكان الأطفال يلتهمون التراب.

عشرون يوما أم عشرون عاما ؟ هو لا يدري. كم عدد الفتيات اللواتي ارتبط بهن في حياته ؟ ربما كانت عشرين فتاة، هو لا يدري... إنّه يكاد يفقد الذاكرة. كان أخوه يلعب في المنزل مع أخته، واشتعلت النار فجأة في المطبخ !

أضواء البهو !

استوقف زميله قائلا :

– ها قد مات جدي !

الإعدام

إنها الساعة الثانية ليلا. هدوء كبير يعم الأرجاء. ليس هناك كلب واحد ينبح على طول الشارع. هو ذا الوقت الذي تطيب فيه التسلية للأشباح. ولعل عددا منهم يقف الآن أمام منزل قدا، متأهبا للدخول في عالمه الرهيب. بل لعله هو الآخر، صار شبحا مثلهم. وقد لا تكون صرخته تلك، التي هزت أركان الظلام وقلبت الدار رأسا على عقب، إلا واحدة من صيحاته الشبحية، لتزيد من توتر الأعصاب وتجعل من القلق زادا يوميا.

أنّت الأبواب، وتهافتت الأصوات. لقد هرع إليه الجميع. بنت أخيه عيدة، أمسكت بيده وشرعت في النحيب. ووقف ابنه طوطو باهتا عند رأسه، أما أمه زغودة، فقد جلست على حافة السرير، تحدق فيه وتصرخ.

«لا، أتركوني، مالي ولكم ؟ أنا لم أفعل شيئا، لم أفعل شيئا... دعوني وشأني ! لا أريد أن أشاهد...، لا أريد أن أرى... لا أريد !»

واقع رهيب ونرفزة دائمة، يتأرجح بينهما على حبل الخوف، طيلة النهار وجزءا من الليل، ثم يساق رغما عنه ليشهد الاعدام !

– أنظري ! أمّاه... قتلوها... قتلوها...

– صبرا يا بني. يجب أن تنام الآن ! هدّئ من روعك، هدئ من روعك !

– أماه... دعوها وشأنها... دعوها... دعوها... ضربوني يا أمّاه... قيدوني بالحديد...قيدوني...

– أصمت الآن. أصمت قليلا... هون عليك يا بني !

– ضربوني حتى سالت دمائي ثم أخرجوني من الدار وأركبوني في سيارتهم السوداء... إلى أين أخذوني يا أماه ؟ إلى أين... ؟

هو ذا في التاسعة والأربعين من العمر، وبعد أشهر قليلة سيكمل نصف قرن من الزمن في حياته. حياة كلب أصيب بالتكوك، بل أسوأ من ذلك. إنّه يعيش توترا مستمرا، فهو معلق بمجيء الليل والساعة الثانية منه.

الساعة الثانية من الليل ! مسرحية الإعدام المعادة أمام عينيه وبكل فظاعة.

مأساة الحقيقة الماضية التي تأبى المضي، فهي تتربع كل ليلة على عرش الحاضر لتفرض مشاهدها كواقع بشع، واقع رهيب إلى أبعد حدود الرهبة.

من الطرقات القوية على الباب الخارجي للمنزل حتى طلقات الرصاص القاتلة، بعد سبعة دقائق ونصف من ذلك.

لحظات ويزاح الستار، ليبرز الضابط الأشقر وصعاليك الدمار السبعة، على خشبة المسرح... فناء... بئر... كرمة... مرحاض...

– «اخرس أيها الكلب ! سنريك كيف نفعل با «الفلاڤة» الذين تخفيهم في دارك» قال أحد الفرنسيين.

وأضاف آخر :

– اثبت في مكانك، سيأتي دورك يا كلب.

وقال ثالث والشرر يتطاير من عينيه :

– سأقطع أذنيك بأسناني إن قمت بحركة واحدة.

ولكزه رابع بالماسورة إلى بطنه :

– قذارة ! «بيكو» !

لماذا يتحتم عليه أن يشهد الإعدام ؟

– لماذا ؟

ولماذا تعاوده حمّى الساعة الثانية ليلا ؟ حين يطرق الباب... ويبدأ المشهد الأول من الفصل الأول والأخير، المتكرر كل ليلة، بنفس الطريقة والأداء، بنفس النظرات والحركات وبنفس العنف.

لقد زعزعت صرخته تلك هدوء المكان وحولت سكونه البهيم إلى سمفونية مريعة. إلتف به الجميع كالعادة، قلقين وحزانى. إنهم يواجهون أشباح الرعب في هذه الآونة، يواجهونها من خلال قدا، رب البيت المعتوه، من خلال تصرفاته أثناء تلك المرحلة من الليل وعبر الإعصار الذي يمر به حينذاك والهذيان... الهذيان الدائم.

– لا ! لا... لا !.

أغرقت الأم في البكاء وهي تغمغم :

– الله يحرقهم كما حرقوا قلبي عليك ! ماذا فعلوا بك يا بني ؟!

– لا، لا أريد أن أرى... أغربوا عنّي... أغربوا !

وربّتت عيدة على كتفه :

– خفف عليك يا عمي، أنت مرهق... مرهق جدا.

أما عياش فاكتفى بنظرة يائسة ولزم الصمت، لكنه كان صمتا «متفاعلا...».

استند قدا إلى الوسادة ووضع سبابته على فمه وحملق في أمه قائلا :

– أوشت !

إنه لطرق شديد ذلك الذي ارتج له المنزل بكامله. ولعله أشد من سابقه...

وها هو المزلاج يحطم إثر طلقات رشاش ليفتح الباب ويسمح لممثلي الإرهاب، في بذلاتهم العسكرية، بدخول موفق. لقد

أزيح الستار كلية ودخل الممثلون في أدوارهم الدموية. توزيعهم على الخشبة كان يخضع لخطة مدروسة. قيامهم بتفتيش الغرف تفتيشا دقيقا ومثمرا دليل على ذلك. ثم إن إلقاءهم القبض على المجاهدين مثلا، لم يتطلب أكثر من دقيقتين، وعملية جرهم من القبو إلى الفناء ثم إلى الحائط الأيمن، بالقرب من المرحاض، أثبتت ممارستهم الجيدة لقواعد العنف وحنكتهم في كل أساليبه وتخصصاته. تصرفات القائد وحدها جديرة بأن تخلد كمثال للهمجية، سيما وهي تنطلق من مبدإ « الغاية تبرر الوسيلة» باعتبار أن القتل هو النموذج الأشد فعالية ضمن وسائل السحق والاضطهاد.

– هذه القذارة تريد أن تحارب فرنسا العظيمة، يعلق القائد.

وتدوي ضحكة عساكره وهم يكيلون اللطم للسجينين. لقد حشروا قدّا وزوجته حيزية وأمه على الجدار الأيسر، بينما علا عويل طفلين بداخل إحدى الغرف.

وخلال لحظات، انقض أحد المجاهدين على معول فوق سقف المرحاض وانتفض انتفاضة عملاق في الأغلال، الشيء الذي جعل العساكر يتراجعون إلى الخلف وكأنهم أصيبوا بالذهول. غير أن القائد كان بالمرصاد، إذ باشر بإرسال رصاصة من مسدسه، ثم أخرى، في بطن الثائر. تهالك إثرها هذا الأخير على الأرض وسقط المعول من يده، واهتز جسمه اهتزازا عنيفا.

لكنه ردد وهو يشير بقبضة يده إلى المجرم :

– لتحيا الجزائر... لتحيا الجزائر...

كان مشهد الدم وهو ينزف من أحشائه مهولا إلى حد أن العساكر أنفسهم أداروا رؤوسهم.

– لن تلعب دور البطل بعد، أيها الحقير ! قال القائد بصوت صارم، ثم أمر بتقييد المجاهد الثاني.

إن بعض أهالي الحي يفترض بأن خيال قدّا واسع جدّا، وبأنه مصدر همومه. وبعضهم ينفي ذلك. لكنهم متفقون على كونه فقير الحال. فهو منذ أن طرد من عمله بشبكة الخطوط الحديدية إبّان الثورة للشك في أمره ولعدم كفاءته حسب التقرير الذي وقعه مرغما، لم يجد شغلا يعيش منه.

لقد فرضت عليه الظروف خوض غمار السوق السوداء والاتجار المحضور، غير أن الشرطة كانت تحاصره بلا رحمة وتضيق عليه زوايا المدينة. لذا، صار يفكر في عمل يضمن له الأمن والاستقرار ويكفل العيش البسيط لعائلته، دون اللجوء إلى الطرق الملتوية والمحفوفة بالمخاطر.

إنه يسكن منزلا على وشك الانهيار، ورثه إبنا عن أب عن سلسلة من الأجداد، يحتوي على ثلاث غرف وفناء واسع، به كرمة باسقة على اليسار، وبئر في الوسط، محاط بسور صغير من الحجر المدعم بالإسمنت. وفي أقصى اليمين، مرحاض عليه ستار مصنوع من أكياس القمح المهترئة.

لكم فكر بهدم المرحاض، قبل تلك الليلة المشؤومة من أواخر سنة 1960 م، وبناء حانوت مكانه. كان يحلم بنهاية الحرب التي اشتدت كراهيته لها بعد استشهاد أخيه الصغير، حمنة، ووفاة زوجته في نفس السنة بداء البرد كما قيل، تاركين له إبنتهما عيدة وهي لا تتجاوز العام من العمر. وها هو مقبل على الخمسين دون أن يحقق مشروعه، بينما تحول حلمه ذاك إلى كابوس مستمر.

لقد نسي المرحاض والدكان والتجارة... ولم ينس الحرب ! هو على موعد معها كل ليلة. فالطرقات والساعة الثانية ليلا مقترنتان في ذهنه، بل ولا يمكنه الإفلات منهما. إنّه يعيشهما كواقع لا مفر منه. واقع يتجمد الزمن به لسرعة الأحداث وهولها، ويصبح الوجود فيه رهينة الثواني.

أشياء عدة تجعل منه شخصا مختلفا، ليس كبقية الأشخاص. إنّه لازال يعاني من أهوال ثورة التحرير إلى يومنا هذا. لازال يرهب الليل، وكلّ ما يشبه الطرق أو وقع أقدام المارة على الطريق، ويخاف من صفارات الإنذار وسيارات الشرطة والإسعاف، ويرتعد لمجرد رؤيته بذلة عسكرية.

– أماه ! حيزيه !

– لا تصرخ هكذا يا بني ! لماذا ترهق نفسك... ؟

– أنا لم أفعل شيئا. لا، لا يجب أن أصرخ. لقد وضع البندقية في بطني... هنا... وقال لي «إخرس أيها الكلب». وبقيت صامتا أنظر...

– أصمت يا بني ! قاطعته الأم بيأس.

وتدخل عياش :

– لا فائدة. هو لن يصمت أبدا !

ونظرت إليه عيدة ثم التفتت إلى عمها «المريض» ورددت :

– أبدا...

انتفض قدّا فجأة وراح يتفرس وجه الفتاة :

– أبدا، أبدا... أبدا.

وندّت عن عيدة ابتسامة، سرعان ما خفتت تحت وطأة النظرة التي سددها إليها عمها، والتي رغم كونها كانت تبدو غير مركزة، إلا أنهاكانت تخترقها اختراقا.

تنهدت العجوز زغودة ولملمت وشاحها القديم حول كتفيها.

– عودا للنوم يا أبنائي. سألبث بجانبه حتى يهدأ.

– أبدا... أبدا. ردد قدّا وهو يعبث بيديه تحت الغطاء، غير مكترث لوجودهم قط، بحيث أنه لم يلاحظ خروج ابنه عياش وانطلق يحذره مما يتنازع خياله من مخاوف :

– هيا يا طوطو ! لا تدعهم يمسكوا بك، إن قبضوا عليك أخذوك. سيرمون بك في سيارتهم السوداء ويقودونك إلى مكان مظلم، وهناك... «أغغغط». مرّر قدّا بيده الممدّدة على رقبته موحيا بصورة الذبح. في تلك اللحظة، ثبت لديه، من خلال نظرة شاردة، بأن ابنه قد غادر الغرفة وتحيّر للأمر برهة، ولكنه ما لبث أن بدت عليه دلائل الاستبشار.

– أماه ! أرأيت، طوطو... لقد فر من السقف كالخفاش... أرأيت !

وردت عليه الأم قائلة :

– عياش ذهب للنوم يا بني.

– للنوم ؟! لا ! طوطو لم يذهب للنوم... لقد هرب من السقف !

وأرادت العجوز أن تتدخل ولكنها عدلت عن ذلك، كونها كانت تعرف أن ابنها المسكين سيتشبث بفكرته تلك إلي أن يتعب ويستسلم للكرى.

– نعم ! لقد نجا بنفسه. لا، لن يقبضوا عليه أبدا. لن يقتلوه كما فعلوا بها... لن ينالوا شعرة من رأسه.

لماذا يتحتم عليه أن يشهد الإعدام ؟

سكان الحي يتساءلون عما إذا كانت دار قدّا تأوي الأشباح أيضا. فالكثيرون منهم يجهلون ما وقع في تلك الليلة التي لا ينبغي أن تمحى من ذاكرة الأجيال. إنهم يجهلون أن الدار كانت مسرحا لاغتيالات رهيبة، لا يمكن للإنسانية إزاءها إلا أن تنكس رأسها وأن تلزم صمتا لا يزول إلا بزوال الإرهاب ودوافعه الدنيئة.

لو حدث أن رأوا ما رأى قدّا وأمه آنذاك، لعدلوا عن استهزائهم ولابتلعوا سخرياتهم قبل التفوه بها.

مجاهد ملقى على الأرض، ماسك بطنه بيديه المضرجتين بالدم، وجسمه يهتز، من حين لحين. إنّه يفغر فاه ويحدق بمعول قربه. ومجاهد آخر واقف، موثق اليدين إلى الخلف. تارة ينظر إلي صاحبه المحتضر، وتارة إلى الضابط.

ويقترب منه هذاالأخير وهو ما يزال يشد على مسدسه :

– أتريد أن تدخل الجنة مثل صاحبك ؟ انظر. ها قد خمدت أنفاسه الأخيرة. لا شك أن روحه سترفرف الآن فوق جسده طويلا قبل صعودها إلى السماء. إنه ما يزال في مقتبل العمر... خسارة، خسارة حقيقية !

– تفوه !

احمر وجه الضابط فجأة واشتعلت نار خبيثة في عينيه. لكنه تمالك نفسه كالذي يشحذ خنجرا وهو متيقن من أنه سيغرسه لا محالة في قلب فريسته.

– ستعترف بكل شيء أيها الوغد... استدار الضابط نحو عساكره وأمر أحدهم قائلا :

– الدرس الأول، يا «مارسال».

تقدم المدعو برفقة جنديين وأحاطوا بالمجاهد. وما هي إلا لحظات وانفجر الدم من وجهه من فرط اللّطم وخرّ على الأرض.

– قف ! قال الضابط، وابتعد الجنود للتو.

– هل بإمكانك النهوض أيها الحقير ؟ لا شك أنك قد هضمت الدرس جيدا.

رفع المجاهد رأسه نحو الضابط مستجمعا في فمه مزيجا من الدم و«التفال» وللمرة الثانية :

– تفوه !

أقبلت الليلة السابعة من شهر ديسمبر، ليلة باردة من ليالي أوراس الخالد. لقد هطل المطر طول النهار، بحيث أن عيّاش المكنى بطوطو قد عاد مبللا من العمل، لذا اتجه فور وصوله إلى غرفة أبيه، حيث يوجد الموقد. وهناك جاءته عيدة بفنجان من القهوة، ثم عادت لتهيء العشاء، بالقرب من جدتها العجوز.

أما هو، فأشعل لفافة تبغ وأخذ يطيل النظر إلي أبيه. كان هذا الأخير نائما، وصدره الهزيل يعلو ويهبط تحت الغطاء برتابة تامة. وتأكد لديه من أنه تناول الدواء. لقد كان يرفض ذلك أحيانا، بل وأسابيع كاملة. وكان يبدو حينذاك كوحش مذعور، لا يأمن أحدا، حتى ولو كانت أمه زغودة. وخلال تلك الفترة، كان أفراد العائلة كافة يعانون معاناة شديدة وتتحول حياتهم إلى جحيم حقيقي.

قرر عياش أن يذهب، بعد العشاء، إلى دار أحد أصدقائه من الجيران، لمشاهدة فيلم تلفزيوني عن رعاة البقر. كان مولعا بذلك النوع من الأفلام، كما كان مولعا بكل ما هو أمريكي. إنه يحفظ أسماء الممثلين المشهورين عن ظهر قلب، لكنه لا يعرف غير ذلك. فعمله بمصنع النسيج بسيط وشاق، وحياته خارج العمل لا تمكنه من تعلم شيء يذكر، وسط مجتمع يرتع فيه الجهل وتستفحل فيه

أمراض خبيثة. ثم إن أباه يغلق عليه الأفق، إذ ليس باستطاعته أن يفكر بشيء آخر. لا يمكنه مثلا أن يفكر بالزواج مع أنه متعلق بفتاة من الحي ويتمنى لو قدّر له أن يعيش معها. إن ذلك مستحيل مادام أبوه قدّا سجين الماضي الذي هدم حياته، ومادام شبابه هو وحياة باقي أفراد العائلة وراء قضبان جنونه.

صحيح أنه قرر منذ خمسة أشهر أن يسافر إلى أحد بلدان أوروبا عدا فرنسا وأن يدع الأمور تجري على مشيئة الله. واجهته صعوبة أولى : من أين يجمع المال الكافي لذلك ؟ الحل الوحيد هو توفير مرتبه لمدة شهرين. وفي هذه الحالة، ماذا يقول لجدته عند نهاية الشهر ؟ ثم ماذا يقول لعيدة، وهو الذي وعدها بابتياع جبّة جديدة لها، بمناسبة بلوغها سن الثامنة عشر.

ثم إن هناك عقبة أخرى، فهو لا يعرف شيئا من لغات تلك القارة، مما يجعل التعامل مع أناسها صعبا. وقد تبوء مغامرته بالفشل التام، وذاك أشد ما يخشاه.

لن يقبل أن يعود إلى أهله مكسور الجناح، ذليلا. بأي وجه سيقابلهم ؟ بأية عيون سينظر في عيونهم وأية هزيمة ستكون هزيمته ؟!...

– «لا ! لن يفر من الجحيم ليعود إليه !».

ها هي جدته تناديه :

– عياش، أيقظ أباك. هو لن ينام بعد العشاء.

سحق عياش ما تبقى من سيجارته داخل المطفأة، ثم اقترب من سرير أبيه.

– مكانك يا عجوز النحس ! حركة ثانية وأرسلك داخل هذا القدر، قال الضابط وهو يشير للبئر بأصبعه. وترجم الرقيب ميشال وهو يهددها بحربة بندقيته، فزحفت بسرعة غير آبهة بالوشاح الذي سقط من كتفيها على الأرض، ودلفت بين قدّا وحيزيه حيث التصقت بالجدار.

رنت اثرها ضحكة الضابط في أنحاء الفناء كجرس ضخم ونفذت إلى الغرف الثلاث. وفي إحداها دوى بكاء طفلين، وكأن في صراخهما الحاد والمستمر احتجاج على ما يحدث حولهما.

إن كل مؤونة العائلة بما فيها حليب الرضيعة اليتيمة، التي تشبثت به العجوز حتى ألقيت جانبا وبكل عنف، قد رميت في البئر وامتزجت بمياهه، في ظرف دقيقة واحدة.

استدار الضابط نحو المجاهد الطريح والمخضب بالدماء قائلا :

– والآن ؟ لم يبق لك الخيار أيها الصعلوك، ليس هناك درس ثالث. إما أن تعترف بكل ما تعرف، وإما أن تعدم هنا وفورا.

رفع المجاهد الشاب رأسه مرة أخرى وحاول أن يقذف ما بفيه في وجه الضابط غير أنه لم يقو على ذلك. كان يعتصره ألم شديد في بطنه، وكأن شيئا ما بداخله قد انفصل. أحس للحظات بأن

قلبه على وشك الانفجار من قوة الخفقان وسرعته، ثم هزّه الغثيان فجأة، وأودع تربة الفناء كتلة متخثرة من دمه، وربما كانت قطعة من أحشائه.

واقترب الضابط أكثر وردد :

– والآن ؟

ولما قوبل بالصمت، التفت ناحية اليمين حيث يقف مارسال وقرر :

– لن أسلمه للمكتب الثاني ! هذه القذارة لا حاجة لها بالحياة، ثم إن فرنسا لا يجب أن تثقل عاتقها بالإنفاق على مثل هذه الحيوانات الخرساء، التي تكتظ بها السجون. رصاصة واحدة تكفي لاقتصاد الكثير. هيا، أوقفوه !

وبادر مارسال واثنين من أعوانه بتنفيذ المهمة، واضعين عصابة سوداء على عيني المجاهد، الذي كان بوده أن يرفض لولا أنهم أرغموه على قبولها. وها هو فصيل الإعدام يتشكل، بأمر الضابط، وإزاء البئر، على بعد أربعة أمتار من المحكوم عليه بالموت.

وأثناء ذلك، ظل الرقيب ميشال، من الناحية الأخرى، يتنقل ببصره من وجه قدّا إلي وجه زوجته حيزيه التي يمعن النظر فيها ثم إلي العجوز التي كانت أسنانها تصطك من الخوف والبرد. كان يوجه نحوهم فوهة بندقيته الآلية، ويترصد أدنى حركاتهم.

– أطلق النار ! قال الضابط ببرودة تامة.

وارتجت الدار لصوت الرشاش، غير أن المعدوم لم يسقط ! بقي ملتصقا بالجدار، وكأنه شخصية مسرحية قديرة تمثل موته فريدة من نوعها.

لم يبق للضابط السفاح بعد أن أشفي غليله من الدم إلا أن ينسحب وراء الكواليس. فهاهو يأمر جنوده قبل مغادرة المكان برمي الجثتين في البئر، الشيء الذي نفذ مباشرة، وبالقبض على قدّا. لكن حيزية اعترضت بشدة علي الأمر، وراحت تتشبث بمعطف الضابط، مترجية إياه أن يترك لها زوجها، غير أنه لم يكن ليسمع صوتها أو ليأبه لما تقول، بل رفسها برجله مرة، وأخرى. ولما أعادت الكرة ثالثة، أخرج المسدس وصوبه نحو قلبها، محذرا إيّاها :

– كفى أيتها القذرة ! ليس لدينا وقت نضيعه.

وللمرة الرابعة، صرخت حيزيه في وجهه واندفعت نحو زوجها الذي كان ثلاثة من الجنود يدفعونه نحو الباب الخارجي. وفي تلك اللحظة انطلقت رصاصة أخرى من سلاح الضابط كخاتمة لتلك المجزرة الرهيبة. لماذا يتحتم عليه أن يشهد الإعدام ؟

وضعت الأم يدها على خدها وجالت بنظرتها على شعر ابنها الذي أخذ يميل للبياض.

– دعوني... أنا لا أريد شيئا... طوطو، طوطو، هل رأيت ؟ لا... أنت لم تر شيئا... سيقتلونك... لا تقل شيئا... هم لا يرحمون... أماه... لقد قتلوها... قتلوها... بدون رحمة قتلوها.

– لماذا لا تنام قليلا يا بني ؟ هم رحلوا من هذه البلاد ، إلى الأبد... أتسمع ؟

– رحلوا ، هه !... لا ! لا ! هم سيجيئون... لا شك أنهم أمام الباب... صه ! إنهم يستعدون للهجوم...

– أنت تهذي يا بني ! يجب أن ترتاح. اصمت قليلا وأغمض عينيك...

– أغمض عيني، هه ! لا ، هم لا يريدون أن أغمض عيني... لا يريدون... قال لي أحدهم :

– «شاهد كيف يتحول «الفلاقة» إلى دجاج. لو تغمض عينيك، سأفقأهما بهذه الحربة».

نعم قال لي ذلك يا أماه. لا يجب أن تغمضي عينيك ! إنهم متوحشون... لقد ضربوني، ثم جروني نحو سيارتهم السوداء. لا تبقى هنا يا طوطو! يمكنك أن تهرب... على السقف... سيأخذونك أيضا... سيأخذونك... ولكن ! إلى أين يا أماه ؟ إلى أين أخذوني ؟ إلى أين ؟...

– لماذا يا أماه ؟ لماذا ؟

أدرك قدّا بأن أمه لم تكن موجودة بالغرفة. راح يذرعها بخطى وئيدة، ذهابا وإيابا ، وهو يتلفت يمنة ويسرة، وكأنه يخشى أن يفاجأ. ومن حين لحين، كان يتوقف عن الحركة تماما ، ويبدو شارد الفكر والنظر، حتى ليخيل للرائي أنه قد تجمد في مكانه. ولكن سرعانما يعود للذهاب والإياب، وللتدخين، بل وهو يستحوذ حتى

على سجائر ولده عياش ويلتهمها التهاما. وحين يجلس على سريره خاصة، أو على أحد الكرسيين القديمين، اللذين تحتفظ بهما العجوز زغودة كمن يحتفظ بتحف نادرة، مخافة أن يزورها زائر ولا تجد له مقعدا، تراه لا يمل من قضم أظافره بأسنانه، أو العبث بأصابعه أو بشعره أو بشيء ما.

– لماذا ؟

راح يحدق بالمدفأة ملاحقا ببصره ألسنة النار وهي تتماوج خلف حاجز الزجاج المستدير، راسمة بظلالها أشكالا شتى على صفحة الجبس الباطنية. وفي تلك الآونة سمع طرقا شديدا على الباب، لم يعرف مثيلا.

– أماه ! أماه !

أخذ يهرول باتجاه الفناء...

– أماه ! أماه ! أمـ...

قال عياش وهو يتابع على الشاشة حركة بطل الفلم الذي كان يتأهب للمبارزة مع عدوه اللدود :

– ما هذا الصخب ؟

وأجابه حمو بلا مبالاة :

– لست أدري.

ارتجت الأبواب في أحد المنازل المجاورة لكأن جدارا تحطم، ثم سمع ذلك الصراخ الحاد والعويل الذي يفتت القلوب...

انخلع طوطو من مكانه واقفا، وأرهف السمع.

- لعله منزلكم ! قال حمو.

لم يكد يكمل جملته حتى مرق عياش من باب البهو كالسهم منطلقا نحو داره، وهو لا يلوي على شيء. ولحق به حمو.

كان المشهد مريعا : لكأن العجوز زغودة تريد أن ترمي بنفسها داخل البئر وهي تولول كالثكلى وتلطم وجهها. عيدة كانت شاحبة حتى الموت وهي تمسك بذراع جدتها وتصرخ :

- لا يا جدتي، لا، لا !

- قتلوك يا إبني، دعيني، أريد... إبني... إبني...

العائد

لماذا هم ملتفون به هكذا ؟ هو لا يصدق بعد أنه قد عاد ! عاد إلى الحيّ الذي ربي فيه. عاد بعد كل هذه السنين. من ذاك الذي ينظر إليه عبر النظارات اللامعة، ويبتسم ؟ لا ! هو لا يعرفه، ولا يعرف أحدا من الآخرين. لعلهم تغيّروا كثيرا ؟

سماتهم الأولى ضاعت وراء أقنعة الزمن الذي لا يعرف التألم. كيف لا يتذكر حتى واحدا من بينهم ؟ لا شك أنهم أشخاص آخرون. لا ! لا علاقة له بهم، ولكن، لماذا لا ينهض ويمضي ؟ ولماذا يجلس معهم إلى هذه الطاولة المتهدّلة بمقهى السلاطين ؟ هل بينهم أحد من معارفه ؟ لا، هو لا يعتقد ذلك. إذن ؟

إذن... هو لا يصدق. هل عاد حقا ؟!

كان في الثالثة والعشرين، وها قد شاب شعره. كان شيئا، وها قد صار شيئا آخر. أحبّ ذاته كثيرا. لقد شبّ وهو يعانق صورته

في المرآة... يفتح أبوابا تلو الأخرى على عوالم سرمدية هناك، في عمق عينيه. ورغم ذلك، فهو لا يعتبر نفسه أنانيا كصديقه محمد، أو بهاء الدين، أو غيرهم. كلهم كانوا أنانيين، ولكل واحد منهم طريقته الخاصة في التفاعل معه.

طبعا، كانوا جميعا في قوقعة واحدة، وفي هذا الحي بالذات... بمقهى السلاطين أو بمقهى الحياة. وكانوا متفقين على أنّ العيش هنا إضاعة للوقت، ليس إلّا. ولكن أحدا منهم لم يرفع إصبعه ليقول :

– كفى ! ليس بمثل هذه السهولة.

لماذا هذا الصمت ؟ إنّه لا يطيق. لا يفهم كيف استطاع الجلوس بينهم. لماذا لا ينصرف ؟

هل يخشى أن يقهقهوا وراء ظهره ؟ إنّه حقا لا يتذكر ولو واحدا منهم. تبدلت ملامحهم كثيرا. ثم من لا يتبدل بعد نصف قرن من التذبذب والارتعاش ؟ لم تكن لديهم الشجاعة الكافية للثبات وللوقوف في وجه الرياح العاتية، التي كانت تعصف بحياتهم وتهدد مصيرهم. لم يكن ثمة من يستطيع أن يبرهن على أنّ وجوده قائم بحدّ ذاته. لكنهم كانوا يثرثرون، يثرثرون دون انقطاع... وحتى أثناء النوم كانوا يستمرون في الثرثرة، يتحدثون دون إشكال عن أحلامهم ومطامحهم وأسرارهم، بصوت عال، لا يمكن أن تختزنه جدران الدار. لقد تعودوا على ذلك منذ

الصغر... ففي الثرثرة عزاءهم الوحيد ومتنفسهم الدائم. صحيح أن السكوت في أغلب الأحيان من ذهب، لكنه صعب المنال. أمّا الكلام فهو أبعد ما يكون عن رنين الفضة وأشبه ما يكون بتلك الخشخشة المنبعثة من جيفة غطست في حوض مملوء بحامض الكبريت. الثرثرة هنا هي تفاعل الأموات مع أرواحهم، ليتذكروا بأنّهم حقا أموات.. أموات إلى الأبد.

لماذا يتفرسون في وجهه ثم يتبادلون نظرات مركزة لا يفهم كنهها ؟ لماذا يتهيأون للحديث وحين يلتفت إليهم يحجمون... يصمتون كالحجارة ويكسرون الطرف ؟ ما الذي يجري ؟ لا ! ليست هذه وجوههم ! كان يعرفهم إلى حدّ ما... لكنهم تغيروا. صار لا يتذكر أحدا منهم. ولكن، لماذا لا يجرؤ على الانصراف ؟ لماذا يتسمّر على كرسيه وكأنه يشارك في أحد الطقوس الغريبة، التي تحتم عليه الجمود في مكانه ؟ لا ! هو لا يعترف بوجودهم. ليس ثمة ما يبرهن على ذلك.

إذن ؟... هو لا يصدق. أعاد من جديد إلى مدينته المصفرة كالموت ؟!

كان في الثالثة والعشرين، وها هو في الخامسة و الخمسين ! أعجوبة. كيف استطاع أن يمكث طوال هذا الوقت هناك، كيف ؟ لقد قطع المسافة على ظهر باخرة، ذات يوم... ثم انقطعت أخباره، لم يكن يفكر بالعودة مطلقا... مطلقا.

حامل النظارات مازال يبتسم، لكأنه يحلم. وذو الكرش المندلقة على الطاولة كبرميل مطاطي يغمض عينيه من حين لحين، وكأنه يصارع النعاس. وصاحب الأنف المفرطح ! لماذا يبدو وكأنه يتابع أملا ضائعا يتوغل في الجوزاء ؟ لا، هو لم يلتق بشخص كهذا أبدا. وحتى ذلك الجالس على يمين حامل النظارات، الذي لا يفتأ يعبث بأصابعه وكأنه لا يعرف أين يضع يديه. هو لا يشك بأنه لم يشاهد نموذجا بشريا مثله، وبهذا الوجه. لم ير في حياته عينين أحدّ من تلك ولا أشد بريقا، لكنهما لا تثبتان في مكان، لا تستقران علي شيء... لا تنظران ! والآخر، هناك، ببذلته القديمة ذات اللّون الرصاصي وياقة العنق الخضراء... بديع ! لا، هو يبدو كالصنم... لا يظن البتة بأنه من معارفه... وحتى جواربه خضراء ! يا للأناقة ! طبعا لم يحصل أن تعرف على شخص يلبس جواربا صوفية خضراء، في حرّ الصيف، ولكن...

لماذا لا يتركهم ويمضي في سبيله ؟ لماذا ؟ ولماذا كلما فكّر بالإنصراف يصيبه الجمود ؟ أهو يخاف مما قد يتصرف به الآخرون ؟ هل حدث أن ضحك بعضهم في ظهره بهدف الإساءة إلى شخصه ؟ لا... ربما مرة واحدة فقط... ترى أين وقع ذلك ؟ أين ؟...

آه ! كنت تقيم بمرسيليا، بحي تيبانو، فندق نيس، وكنت ترتاد البار القائم بالركن المقابل، حيث تأتي بائعات الهوى لاصطياد طيور الاغتراب ورواد الليل، أو أصحاب المجون وذوي الجاه والجنون. كنت تجلس في مكان منعزل وتغترف الخمرة اغترافا.

وشيئا فشيئا اصطحبت فتاة أو بالأصح اصطحبتك، وصارت تشاطرك الطاولة دون أن تسرف في الشرب. وذات مرة عانقتك وعانقتها، أمام الجميع. ولما أردت أن تغادر المكان وأنت لا تزال تمسك بيدها، رنّت وراءكما قهقهات مدوية. لكنك لم تكترث لها، كونها كانت من طراز خاص، تكتنفها السذاجة... ولا تمس البتة بكرامتك... فكرت هكذا... أو لم تفكر... كانت صديقتك تضغط على أصابعك، وتبعث في جسمك دفئا آخرا... دفئا لذيذا، و...

تذكر ! هناك حادث آخر، كنت بباريس، بأحد المقاهي الواقعة بساحة العرش. أعجبتك شابة مكتملة البنية، ذات قوام ممشوق، وتلبس صدارا حريريا رخوا يبرز تحدي نهديها. التفتت إليك التفاتة غزال، ثم أشاحت بوجهها. رحت تحاصرها بنظراتك النفاذة من كل الزوايا... كدت تحمل كأسك وتذهب للجلوس بجانبها، لولا أنّها رمقتك بنظرة شزراء أوحت إليك أن ألبث مكانك... ولم تجرؤ. غير أنك بقيت تتجسس عليّ مفاتن جسدها الرائع بوقاحة تامة. وجاء صديقها... أو عشيقها... أو خطيبها... أو... قبلته قبلة حلوة وهي تشخص إليك بازدراء وا حتقار...

انخلعت من مجلسك مندفعا إلى الخارج... كرهت شخصك. ووجودك... بينما لا حقتك قهقهة صامتة مقيتة... لاحقتك حتى داخل الحديقة العمومية، أين جلست لتتناول الساندويتش الجاف.

آه ! لقد كرهت نفسك إلى ذلك الحد الذي ينقلب إلى عكسه ! حاولت أن توقع في شباكك حورية أصيلة، وأن تعود إلى ساحة العرش لتثأر لك من صاحبة الصدار الحريري... تلك الوقحة ! ولكنك لم تعثر حتى على مومس لتمثل الدور. لم يكن لديك مال كاف تنفقه من أجل ذلك... إذن ؟...

إذن ! هو لا يصدق بأنه قد عاد إلى الحي الذي ولد فيه. عاد من المنفى إلى المنفى ! كان مقتنعا بأنه سيبقى وحيدا في النهاية... هناك... لذا قرّر الرجوع إلى الوطن... إلى الديار. ولكن أية ديار ؟ هل عاد حقا ؟ لا ! هو غير متيقن... غير متيقن...

صحيح أنه فرّ ذات يوم من الجحيم، كما كان يعتقد، فرار الهارب من الطاعون. فضّل أن يعاني هناك. قال في نفسه حين استقر بالمهجر : «هنا، على الأقل يمكن أن أتألم بارتياح، فلست بين ذوي القربى». كان يفكر هكذا. وفعلا، تألم كثيرا وعانى معاناة سيزيف. أهين وأذلّ. ضرب وسجن. جاع وتعرى... لكنه كان دائما يقول :«لا بأس ! مادام الشرّ لا يأتيني من بني أهلي».

غادر البلاد وهو في بداية الطريق... وها هو مقبل على الستين بعد حين. من هؤلاء الذين يحدقون به، ثم يسرحون بأبصارهم بعيدا ؟ تتيه نظراتهم في اللاشيء. يخيل إليه أنهم سراب. يخيل إليه أنهم أموات، أموات إلى ما لا نهاية. أموات تسللوا للحظة من قبورهم ليشهدوا عودة الميت.

كان خبر مقتله قد أحدث ضجة في أوساط الشعب، رغم عدم تأكيده رسميا. أهالي المدينة اغتنموا الفرصة لتنميق الحدث وتزويقه. استخلصوا منه مثالا لا يحتذى به، عبرة لكل الشباب الذين يحلمون بأوروبا. صحيح أن الأموات لا يتكلمون... أكل الدود ألسنتهم وملأ التراب بطونهم... ولكن لماذا هم محيطون به ؟ ألم يكن عبرة لمن يعتبر !

قبل قليل، كانوا يتفرسون وجهه ! هو متأكد من ذلك. لا ! هو غير متأكد. لم يعد متأكدا من شيء. لا يدري. لقد قتلوه وهو حي... دفنوه وهو موجود... شطبوا على اسمه وهو كائن... كائن بمدينة هناك، وراء البحر. وها هم يلتفون به التفاف الليل بالنهار، والخيال بالحقيقة. لا ! المعتوه الأعرج يهرول في عرض الشارع، وما أن يمر أمامه حتى يصيح :

– المقتول يعود ! يا أهل المدينة، لقد عاد القتيل.

قالوا أن جثته قطعت إربا إربا، ثم أحرقت. وقالوا بأنها ألقيت من قطار سريع أثناء سيره، وبأنّ القتلة عادوا فوضعوها في كيس مثقل بالحجارة وزفوا بها إلى مستنقع كبير. وقالوا...

لكنه عاد... عاد وهو لا يصدق بأنه قد عاد ! هل هذا هو مقهى السلاطين ؟ هو لا يشك في ذلك. لم يتغير فيه شيء، عدا الناس... لقد جلس إلى نفس الطاولة منذ ما ينيف عن ثلاثين سنة، وربما على نفس الكرسي أيضا. ولكن، ألا يكون هذا حلما ؟

إنه لا يعرف هذه الجماعة من الناس... لا يمت إليهم بصلة. ما الذي يجمع بينه وبينهم ؟...

هو ضحية المغامرة العمياء، ضحية أوروبا ومتاهاتها...

هم ضحايا الخوف والجمود، ضحايا الجهل و الانتهازية...

كان في الهجرة، وحيدا ومغتربا. وكانوا في وطنهم غرباء. كانت الوحدة تنهش أكبادهم على مرأى من الأهل والأقرباء.

ذو الأنف المفرطح يتوهم بأنه حي... إنّه يحاول عبثا الإمساك بوهم يترهبل في الأجواء، بنظرات عينيه الغائرتين. لا ! هو لا يعرف هذا الشخص، لكنه يراهن على حبل المشنقة بأنه لم يذق طعم الحياة... كان ولم يكن... جاء إلى الوجود ميتا... اندثر. وكذلك الآخرون. ذو الياقة الخضراء، لا يحرك له ساكنا، لكأنّه يخشى أن يتلاشى... أن تتبخر بذلته و جواربه وحذاءه الأنيق، الذي يبدو كزهرة رملية. أمّا صاحب النظارات، فيغرق في حلم «ما ورائي». يخيل إليه أنه يتعبد... أو يصلّي... أو شيئا من هذا القبيل. وهو يفعل ذلك في صمت وجمود رهيبين. والآخر، هناك، على اليمين. عيناه تشعّان ! أهي النار أم هو الجحيم في مقلتيه ؟ لا أشك في كونه بعيدا، في عالمه الرهيب، وهو الآن يبحث عن التوازن على حبل السراط... يداه لا تلبثان في مكان... عيناه لا تركزان على شيء... لا تنظران !

لا ! طبعا، هو لا يعرف أحدا منهم. لم يكونوا بهذه الأشكال... كانوا شبابا، وكانوا يثرثرون... فالحديث يجرّ بعضه البعض،

كما يقولون، وهو مَنهلهم الوحيد. فكل تجاربهم نابعة من الثرثرة. كانوا يقضون النهار بمقهى الحياة... أو بمقهى السلاطين... أو بمقهى آخر... وكانوا يثرثرون... يثرثرون إلى ما لا نهاية. كم من الأقنعة يلبس كل واحد منهم الآن ؟ هم موتى، لكنهم يتزينون بأزياء الحياة، ويعتكفون الصمت !

كان في الثالثة والعشرين... وها قد صار شيئا آخر. كان فتى... وهو الآن في الخامسة والخمسين. كان يحب نفسه كثيرا... ويعشق الحياة. لكنه لم يكن أنانيا إلى الحدّ الذي بلغه صديقه محمد، أو بهاء الدين، أو غيرهم. لقد شب وهو يرقص مع صورته في المرآة... ويحتفل كل يوم بوجوده... رغم أنف الفقر والحرمان. كم كان يمقت فكرة أن الوجود آيل لا محالة إلى العدم... كان لا يطيق مسايرة أترابه الذين يتيهون يوما بعد يوم في مقاهي صحراوية، عبر مجاري ثرثرتهم التي لا تنضب. لذا، ودّع صورته هنا، وتسلق ظهر السفينة دون تردد، ثم راح يفتح باب الحلم على مصراعيه... ظنّ بأنّه لن يعود... بل قرّر ذلك. وخاصة بعد أن قتلوه دون أن يتحققوا من أمره... وهو لا يزال حيا... قالوا بأنه قد مات... مات إلى الأبد.

صحيح أن أخباره انقطعت... بعد مدة من الزمن... انقطعت نهائيا. كان قد تزوج هناك... بينما انطفأت أمّه هنا... وهي تهتف بإسمه... وقبل ذلك بسنة واحدة، توفي أخوه الكبير

وزوجته إثر حادث مرور... اندثرت كل العائلة، ولم يعد هناك مبرر لكتابة الرسائل. وحتى أصدقاءه كانوا لا يكاتبونه... فلا داعي إذن لأن يكاتبهم. لقد تخلصوا منه ومن ذكراه ببساطة مدهشة : قالوا بأنه قد مات وصار عبرة لمن يعتبر.

لا علاقة له بهم إذن. لماذا لا يتركهم ويمضي في سبيله ؟ ولكن أين ؟ هل يعود إلى المهجر ؟ إلى المنفى ؟ لا ! هو متيقن بأنه لن يجد – وراء طلاء أوروبا ومساحيقها الاصطناعية – إلّا الجليد ومصاصي الدم. وهنا ؟ هو لا يعثر له على أهل، ولا حتى على زملاء في الحي الذي ربي فيه... لا يعثر إلّا على الجدران... وعلى الإسمنت... وعلى الرمل...

يخيل إليه أنّ هؤلاء المحيطين به أصنام واهية من طين... يخيل إليه أنّها ستتفتت لو ضغط عليها قليلا... يخيّل إليه أنّ الدّيار ذاتها ستنهار لو مرّ بالقرب منها... فيجد نفسه فجأة في صحراء مفزعة... يخيل إليه أنّ المدينة ستغوص في الرّمال، لو تحرك فجأة على كرسيه... لذا، فهو يثبت عليه ولا يجرؤ على شيء... لا يجرؤ حتى على مفارقة الموتى...

وهو الآن يدرك أكثر من أي وقت مضى، بأنّه سيبقى وحيدا إلى الأبد... ومقتولا إلى ما لا نهاية...

فهرس

السقطة 5
الطلاق 17
التحجر 31
الطبيب مات 43
اغتيال 57
عودة دينا 69
العدم المشخص 85
عشرون يوما أم عشرون عاما 119
الإعدام 131
العائد 149

أنجز طبعه على مطابع
ش.ذ.م.م مطبعة الشهاب
ع. ڤرفي - باتنة